مجلة الصحافة

العدد (17) | السنة الخامسة | ربيع 2020

صحفي أم مناضل؟

معهد
الجزيرة للإعلام

الإيجاز في الكتابة الصِّحافية

إعداد
سيد احريمو

معهد
الجزيرة للإعلام

محتويات العدد

4 الصحافة والنضال.. الحدود الرمادية
أنس بنصالح

8 من ميادين الثورة إلى غرف التحرير
محمود الزيبق

14 لا تصدقوا الحياد في الصحافة!!
محمد البقالي

20 الصحافة كوسيلة للدعاية الأيديولوجية
سميح صعب

26 أبطال بلا مجد
جمال بدومة

30 أين ينتهي عمل الصحفي ويبدأ دور الناشط ؟
مايكل بلاندينغ

44 كيف أصبحت الصحافة تحت رحمة الشبكات الاجتماعية؟
إسماعيل عزام

54 من «ساعة الصفر» إلى «حافة الهاوية» مستقبل الصحافة في التنّوع والتعاون والتعلّم!
علي شهاب

64 الإعلام الغربي.. الاستشراق عدوًّا للحقيقة
محمد أحداد

72 منصة «قصّة».. عامان في الرحلة
محمد خمايسة - فاتن جباعي

78 كيف تدمّر الصحافة حياتك في 88 يوما؟
شفيق طبارة

84 الحب والفقدان في زمن الثورة
ندى بكري

إصدار جديد لمعهد الجزيرة للإعلام

كتّاب المجلة

أنس بنصالح

صحفي في قناة الجزيرة منذ العام 2008. يعمل الآن مراسلاً في العاصمة البلجيكية بروكسيل.

علي شهاب

صحفي عمل منتجاً للعديد من الأفلام إضافة لعمله كمدرب تلفزيوني.

محمود الزيبق

منتج في شبكة الجزيرة. عمل كمراسل حرب لعدد من الوكالات العالمية والقنوات العربية.

محمد أحداد

صحافي في معهد الجزيرة للإعلام. أصدر كتاب «يد في الماء ويد في النار» حول الصحافة الاستقصائية.

محمد البقالي

مراسل قناة الجزيرة في باريس. حاصل على دكتوراه في علم الاجتماع الإعلامي.

فاتن جباعي

صحافية فيديو ومدربة في مجال الإعلام الرقمي وصحافة الهاتف المحمول.

سميح صعب

رئيس قسم الشؤون الخارجية في صحيفة «النهار» اللبنانية.

محمد خمايسة

صحفي وباحث في أخلاقيات الإعلام، يعمل محرراً في معهد الجزيرة للإعلام.

جمال بدومة

صحافي بقناة فرانس 24. من مؤلفاته «باسم جيل ضائع» و«لاتؤجل غضب اليوم للغد».

شفيق طبارة

صحفي وناقد سينمائي. يكتب في عدة صحف ومواقع إلكترونية.

مايكل بلاندينغ

كاتب وصحفي أميركي.

ندى بكري

صحافية لبنانية عملت في العديد من الصحف العالمية أهمها واشنطن بوست ونيويورك تايمز.

إسماعيل عزام

صحافي يعمل مع DW عربية في قسم الأونلاين والشبكات الاجتماعية. عمل سابقا في موقع CNN Arabic وموقع هسبريس.

الحسم.. الجدل القديم الجديد

كانت الساحات العربية يومها ممتلئة عن آخرها بالمتظاهرين، وكان الشباب الغاضب من عقود من الدكتاتورية، يشق طريقه نحو التغيير، وكانت الأنظمة تقاوم إلى النفس الأخير بقوة السلاح، وبقوة «العنف الرمزي» المتسرب من وسائل إعلامها. وحدها هواتف وكاميرات وشهادات النشطاء نقلت الحقيقة، وصارت مصدرا لا محيد عنه للصحافة العالمية في حرب مريرة ضد الرواية الواحدة.

هل كان على هؤلاء «المواطنين الصحفيين» أن يتحلوا بالحياد والنزاهة والموضوعية، وهي القواعد التي تؤطر مهنة الصحافة، أم كان عليهم وهم يواجهون «العصا» الغليظة للسلطة، أن ينصهروا مع صوت الشارع النابض؟ مهما كان الجواب، فإن جزءا كبيرا من النشطاء انتقلوا من ميادين الثورة إلى غرف التحرير، دون أن يكون هناك نقاش جدي حول مدى توفرهم على أدوات المهنة، وكيف يتعايش في جوفهم الصحفي المسيّج بأعراف الحرفة، والمناضل المتمرد غير الآبه بالقواعد والمواضعات.

بالنسبة «لحراس المهنة»، فإن الصحافة والنضال يوجدان على طرفي نقيض، ولا يمكن الجمع بينهما مستندين على أطروحة أن البحث عن الحقيقة يتعارض مع وظائف الإيديولوجيا المدموغة بالإقصاء والحذف والإخفاء.

الحسم في الحدود بين الصحافة والنضال مشكلة قديمة: يتعايشان ويتنافران دون تنازلات كثيرة. بقيت الحدود رمادية جدا، فتحولت مفاهيم من قبيل «الحياد» و«الموضوعية» إلى مفاهيم مجردة غير قابلة للقياس أمام تحول الصحافة في الكثير من الدول العربية إلى أداة لممارسة المعارضة بسبب تدجين الأحزاب والمجتمع المدني.

في مساحة التردد والغموض نطرح السؤال الكبير: «صحفي أم مناضل»؟

مجلة الصحافة

مجلة الصحافة

العدد (17) I السنة الخامسة I ربيع 2020
مجلة فصلية تصدر عن
معهد الجزيرة للإعلام
شبكة الجزيرة الإعلامية

المشرف العام
منير الدائمي

رئيس التحرير
منتصر مرعي

هيئة التحرير
ملاك خليل
محمد خمايسة
محمد أحداد

مراجعة لغوية
الفضيل بن السعيد

تصميم
إدارة الإبداع في شبكة الجزيرة الإعلامية

مجلة الصحافة
Aljazeera Journalism Review

موقع الإنترنت:
http://institute.aljazeera.net/ar/ajr

تويتر:
@AJR_Arabic

فيسبوك:
www.facebook.com/
aljazeerajournalismreview

بريد المجلة الإلكتروني:
ajreditor@aljazeera.net

الصحافة والنضال.. الحدود الرمادية

أنس بنصالح

صارت الصحافة في خندق واحد مع التوّاقين لإسقاط الأنظمة لاسيما بعد موجة الربيع العربي. هكذا تمددت المساحة الرمادية بين الصحافة والنضال.

سمح الصحفي في جريدة «الغارديان» البريطانية غرين غرينوالد لموظف وكالة الأمن القومي الأميركي إدوارد سنودن بفضح برامج التجسس في الولايات المتحدة، دفاعا عما يعتبره خصوصية الأفراد (تصوير: إدواردو مونوز - رويترز).

كلما عاد السجال عن الحدود الفاصلة بين الصحافة والنضال إلى دائرة الأضواء، طفا على السطح طرحان متباينان حدّ التنافر، يؤشران على صعوبة الجزم بوجاهة أحدهما أو غلبته على الآخر.

ولئن ذهب البعض إلى أن مهمة الصحفي الأصيلة تُختزل ضرورةً في البحث عن الخبر ونقله إلى الناس يتداولونه فيما بينهم، ويستقرون على رأي بشأنه بمعزل عن أي تأثيرات خارجية، يرى البعض الآخر أن الصحفي لا يمكن أن يضع مسافة بينه وبين الشأن العام، ولا يسعه الخوضُ في قضايا تهمّ عموم الناس دون أن يكون له نصيب في النقاش الدائر بشأنها، يؤثر فيه بقدر ما يتأثر به.

هي إذن حدود مبهمة، ملتبسة، وقد تكون مضللة، ولا أحسب أن الجدال بخصوصها حُسم لهذا الطرف أو ذاك.

فالصحفي من موقعه كمراقب لبيئته الاجتماعية والسياسية والثقافية مطالَب بتعرية الواقع، وفضح الاختلالات، والتنبيه إلى النواقص، وهذه مهام تتماهى قطعا -وفي مستويات عدة- مع مفهوم الالتزام. وفي الطرف الآخر ثمة صنف من الإعلام اختار التواطؤ والتضليل وتجميل الواقع القبيح.

وبهذا المعنى، فإن الصحافة نوع من النضال والالتزام، كما عرفه الفيلسوف الفرنسي صاحب مفهوم الوجودية جان بول سارتر في بسطه لمفهوم

بعد العام 2011 ومع انطلاق ثورات الربيع العربي، ظهر الحديث عن أهمية عدم الزج بالصحافة في متاهة الأجندات السياسية (تصوير: إد جايلز - غيتي).

الكاتب أو المثقف الملتزم الذي يجد نفسه في مواجهة دائمة مع السلطة.

وقد أسوق في هذا الباب نموذج مخرج الأفلام الوثائقية الأميركي مايكل مور صاحب الرؤية النقدية اللاذعة للسياسات الأميركية، والذي جعل من أفلامه التسجيلية منصة للتعبير عن مواقفه من قضايا العولمة وحرب العراق والليبرالية المتوحشة ومثيلاتها.

وسط كل هذا، أين يقع مفهوم الحياد؟ وكيف نحافظ على الموضوعية؟

لا ريب أننا حيال حقل ألغام يصعب تلمس السبيل في دروبه، فالمنافحون عن حياد الصحفي وحصر دوره في نقل الوقائع والتثبت من صدقية الأخبار، يرون أن الموضوعية والنضال ضدان لا يلتقيان. والرأي عندهم أن السعي وراء الحقيقة ونقلها إلى الرأي العام يشكل في حد ذاته نضالا لا يقل نبلا ولا سموا عن بقية أشكال النضال.

يتعلق الأمر هنا بحرص واضح على الدفاع عن المهنة، وعدم الزج بالصحافة في متاهة الأجندات السياسية، والنأي بها عن المواجهات الأيديولوجية أو الاشتباكات الفكرية.

لم يجد هذا النقاش -على أهميته وراهنيته- سبيله إلى العالم العربي إلا في وقت متأخر، وتحديدا مع التحولات العميقة التي أحدثتها موجات الاحتجاجات الشعبية التي اصطلح على تسميتها باسم "الربيع العربي".

أمام عملية التجريف السياسي، جسدت الصحافة دور المعارضة دون أن تمتلك أدواتها.

في لجة هذه التحولات، لم يعد ممكنا التذرع بالحياد أو التدثر برداء الموضوعية، وكان لزاما على الصحفيين -وقد باتوا في صلب هذه الأحداث-

الاصطفاف إلى جانب ما يرونه تطلعات شعبية مشروعة نحو التغيير والديمقراطية.

فالصحافة في العالم العربي لم تكن يوما حرة، ولا مستقلة أو محايدة. كما لم ترق في يوم من الأيام إلى مرتبة السلطة الرابعة مثلما فعلت نظيراتها في مجتمعات أخرى وجدت سبيلها مبكرا إلى الديمقراطية وحرية التعبير، وجعلت من الصحافة سلطة معنوية بالمعنى الأخلاقي.

وكان بديهيا أن تختار الصحافة العربية -بعضها لا كلها- الانحياز إلى الشعوب، وتتحول إلى منبر ينقل تطلعاتها.

ومن هذا المنطلق، صار الصحفي طرفا في المواجهة، حيث اختار دورا وموقعا فيها عن وعي مسبق وإدراك جلي لطبيعة هذا الدور وتبعاته كذلك.

كما أن فعل التجريف السياسي الذي انتهجته الأنظمة العربية على مدى عقود من تدجين النخب وتبخيس الفعل السياسي، جعل الصحافة في مواجهة مباشرة مع الأنظمة، فتحولت -مثلما هو الحال في مصر وتونس والمغرب- إلى قوى تجسد دور المعارضة دون أن تمتلك فعليا الأدوات التنظيمية ولا المؤسساتية للقيام بهذا الدور.

وإذ يصعب التوفيق بين مختلف هذه التصورات أو الانتصار لبعضها على حساب البعض الآخر، بما فيها تلك التي تدفع

باتجاه تبني القضايا العادلة تحريريا دون اتخاذ موقف منها، انضاف إلى المشهد عنصر جديد حمل قدرا من التشويش والتشويق أيضا لهذا النقاش. ففي عالم باتت فيه المعلومة متاحة على نحو غير مسبوق بفضل كثافة استعمال وسائل التواصل الاجتماعي، ازدادت الحدود بين الصحافة والنضال التباسا، فانزلقت إلى رقعة رمادية!!

وفي مقابل تراجع الإقبال على الصحافة التقليدية، تعاظم استهلاك ما تتيحه مواقع الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي من مواد وأخبار، وأفرز هذا الواقع الجديد ما بات يعرف باسم "المواطن الصحفي".

وتأسيسا على ما سلف، يجوز التساؤل: هل ثمة تعارض بين أن يكون المرء صحفيا يلاحق الخبر ويبحث عن الحقيقة، وأن يكون مناضلا يتحمس لقناعاته وللقضايا العادلة؟

أسوق مرة أخرى نموذجا أراه معبرا عن هذه الحالة أكثر من غيره. الصحفي في جريدة "الغارديان" البريطانية غرين غرينوالد كان أول من فتح صفحات الجريدة أمام موظف وكالة الأمن القومي الأميركي إدوارد سنودن لفضح برامج التجسس في الولايات المتحدة. وقد كان لهذا السبق الصحفي أثره العميق عليه، إذ جعل منه واحدا من أشد المدافعين عن الحريات المدنية واحترام خصوصية الأفراد. وهذا الالتزام في بعده الأخلاقي، لا ينزع عنه أبدا صفة الصحفي.

ثمة مسألة غابت أو غُيبت عن هذا النقاش، إذ ينسى من يثير مثل هذه الأسئلة -وهي وجيهة على كل حال- أن الصحفي في نهاية المطاف جزء من المجتمع يتفاعل مع قضاياه ويتألم لهمومه ويشاركه تطلعاته، ومن غير المنصف تجريده من إنسانيته بحجة الدفاع عن الحياد والموضوعية والاستقلالية، خاصة أنها جميعها مفاهيم تكاد تكون هلامية ومغرقة في النسبية إلى أبعد الحدود.

الرقعة الرمادية بين الصحافة والنضال عززتها وسائل التواصل الاجتماعي بعد أن أتاحت الحصول على المعلومة بشكل أوسع (تصوير: بوراك كارا - غيتي).

من ميادين الثورة إلى غرف التحرير

محمود الزيبق

في الربيع العربي أزهرت صحافة المواطن أيضا.. هواتف صغيرة تحولت إلى مقوض لأكاذيب الإعلام الرسمي، لكنها تجربة لم تخل من انتهاكات.. هذه رحلة النشطاء من الهواية إلى الاحتراف.

في الثورات كما في الحروب، شكل النشطاء مصدرا إعلاميا مضادا لرواية السلطة (تصوير: دان كيتوود - غيتي).

من تلك العدسات الموجودة في جيوبنا، أصبح بإمكان كل مواطن أن يروي قصته الخاصة عما يجري حوله من أحداث. ومع تزايد انتشار الإعلام الاجتماعي أو صحافة المواطن، يعود النقاش ذاته إلى الواجهة، خاصة فيما يتعلق باعتمادها مصدرا للخبر والمعلومة، وتأثيراتها المختلفة على الحقيقة.

حضر الإعلام الاجتماعي بقوة في ثورات الربيع العربي عموما، وكانت الثورة السورية وما زالت -دون شك- أبرز الأمثلة العربية على قوة هذا الإعلام وقدرته على التأثير.

لذلك، بدءا من تغطية المظاهرات وما تعرضت له من قمع، وصولا إلى يوميات الحرب وتفاصيلها، انتعشت ما أطلق عليها صحافة الناشطين التي شكلت مصدرا لزوايا متعددة من الحقيقة، رغم كل المؤاخذات التي يمكن أن تسجل حولها. الاندماج العاطفي كان واحدا من أبرز المآخذ على عمل الناشطين، فكثير منهم لم يفرقوا بين الممارسة الصحفية والنشاط الثوري. والحال أن الغاية بالنسبة لهم كانت واحدة. وهكذا، تأثرت القصص الصحفية التي كان ينشرها الناشطون على وسائل التواصل الاجتماعي، سواء عبر مقاطع الفيديو أو المنشورات. فالذي كان ينشر الخبر هو نفسه المتظاهر الثائر على الأنظمة الفاسدة، وهو نفسه الصحفي الذي ينقل الخبر الذي غابت عنه عدسات الصحفيين أو غُيّبت في ظل أنظمة لا تقبل إلا بصحافة تجترّ روايتها الرسمية.

ورغم كل ذلك، فإن وكالات الأنباء الكبرى ووسائل الإعلام لم تتوقف عن التعامل مع أخبار الناشطين لا سيما المصورة منها، لأنها كانت تشكل المصدر الوحيد لما يحدث، بعد اتباع قواعد التحقق التي تجري على الأخبار الواردة من وسائل التواصل. وكانت صيغة النسبة إلى الناشط في مطلع أخبار وسائل الإعلام بعبارة تبدأ على النحو التالي «بث أو قال ناشطون»، لرفع المسؤولية عما قد يعتري تلك الأخبار من شك. وقد أصبحت في الوقت نفسه صيغة تمريض تشير إلى أن الخبر يقل في مصداقيته درجة عما ينقله الصحفيون المحترفون، لكنه يكتسي الأهمية ويستحق النشر كرواية مناقضة للأنظمة العربية، وهي في الغالب أكثر مصداقية، لا سيما حينما تُظهر مقاطع الناشطين المرئية تفاصيل المظاهرات ولافتاتها وهتافاتها، وتقابلها رواية رسمية مفرطة في السذاجة والاستغباء، تقول إن أولئك المتظاهرين خرجوا لشكر ربهم على المطر!! وهو الوصف الذي ارتأى الإعلام الرسمي السوري استخدامه ذات مرة لتبرير خروج المظاهرات ضده في العاصمة دمشق.

في الجانب المهني أيضا، وقعت عدسات الناشطين في محاذير خطيرة أثناء تغطية الأحداث، مردها إلى الجهل بقواعد البث والنشر وأخلاقياته. أحدها على سبيل المثال لا الحصر، توظيف الأطفال في مقاطع الفيديو لا سيما في مشاهد القصف، حيث ظن بعض الناشطين أن استنطاق الأطفال للتعبير عن آراء سياسية قد يضيف إلى خبرهم مصداقية أكبر. والحال أن تلك المقاطع كانت السبب الرئيسي في امتناع الكثير من وسائل الإعلام عن الاستعانة بها في قصصها الإخبارية.

غير أن غياب الصحفيين المحترفين عن كثير من مواقع الحدث الكبرى بفعل خطورة تلك الأماكن واستهداف الصحفيين فيها لإخفاء الحقيقة، لفت نظر المؤسسات المعنية بدعم الصحافة إلى عدسات أولئك الناشطين، ونحا بكثير منها إلى تقديم الدعم لهم سواء بتجهيزات العمل والحماية، أو بتنظيم دورات التدريب المهني لتطوير أدائهم، كتلك التي قام بها معهد الجزيرة للإعلام لناشطين من دول الربيع العربي في مناطق مختلفة.

كما قامت نقابات صحفية كرابطة الصحفيين السوريين بمنح عضوية «غير أساسية» للناشطين ضمن قيود ومعايير خاصة تشجعهم على تقديم عمل أكثر احترافية، وقدمت لهم الدعم والتدريب وصولا إلى منحهم بطاقات صحفية بتلك العضوية المقيدة من الاتحاد الدولي للصحفيين الذي تحظى الرابطة باعترافه، إضافة إلى توثيق الانتهاكات التي يتعرضون لها من قبل المركز السوري للحريات الصحفية التابع للرابطة.

النشطاء ارتكبوا الكثير من الانتهاكات في حق الصحافة، لكن انتقالهم إلى مرحلة التدريب زودهم بأدوات الحرفة (تصوير: كوتلوهان جوسول - غيتي).

لولا عدسات النشطاء، لسيطرت رواية صحافة الأنظمة التي وصفت المظاهرات ضدها بأنها طلب للمطر.

إن إيمان المؤسسات المعنية بحرية الصحافة وبالدور الذي قام به الناشطون في دول الربيع العربي وما تم تقديمه لهم من تأهيل وتدريب، حوّل عددا لا يستهان به منهم إلى

صحفيين محترفين يتوزعون على كثير من المؤسسات الصحفية الكبرى مع تقدير كبير لأعمالهم، بل إن جائزة الشجاعة الصحفية التي تقدمها منظمة «مراسلون بلا حدود» سنويا لأحد أبرز الصحفيين في العالم، ذهبت عام 2016 إلى أحد هؤلاء الناشطين، وهو هادي العبد الله الذي أصبح من أبرز مراسلي الحرب المستقلين في سوريا.

إصرار بعض الصحفيين من رواد المدرسة التقليدية على احتكار مصدر الخبر وقواعده، ورفض عمل المواطنين الصحفيين رفضا قاطعا، يعتبر نرجسية لم

هادي العبد الله، الناشط الذي غطى الحرب السورية نال جائزة الشجاعة التي تمنحها منظمة «مراسلون بلا حدود» (تصوير: عمر صناديقي - رويترز).

يعد يسمح بها واقع انتشار المعلومات اليوم، وفي مجتمع يمتلك كل مواطن فيه عدسته وآلة البث في جيبه، وتدعمه في ذلك عشرات التطبيقات التي تساعد هؤلاء المواطنين الصحفيين على تقديم قصصهم بأدوات كانت حكرا على الصحفيين المحترفين فيما مضى.

على أن ذلك لا يعني بكل تأكيد فتح الباب على مصراعيه على اعتماد المواطن الصحفي مصدرا مقبولا دون قيود، بل يعني بذل المزيد من الجهد لضبط عمله والاستفادة منه في إغناء المقصد الأساسي للصحافة الذي يكمن في إيصال الحقيقة للناس مهما كان مصدرها وأيا كان شكلها. وعلينا أن نتذكر مرة أخرى أن كثيرا من الحقائق التي وصلتنا عن ميادين الربيع العربي وثوراته، مدينة لأولئك الناشطين، ولم تكن لتجد طريقها إلى العالم لولا اعتماد وسائل الإعلام على عدساتهم.

لا تصدقوا الحياد في الصحافة!!

محمد البقالي

«خطيئة الولادة» ما تزال تطارد الصحافة، ولا يبدو أنها قادرة على الحسم في هويتها: هل تحافظ على صرامة المهنة، أم تميل إلى نبض المجتمع؟

أين ينتهي دور الصحفي؟ وأين يبدأ دور المناضل؟ فبين الطرفين تبدو خطوط التماس مشتبكة، ومساحات الظل كبيرة.

تقول المبادئ التي تدرّس في معاهد الإعلام وتنص عليها مواثيق الشرف في بعض المؤسسات الإعلامية؛ بضرورة الفصل بين الرأي والخبر، وبالتزام الموضوعية والنزاهة والحياد.

هل يوجد حياد في الصحافة؟ دعنا من الإجابة السريعة عن السؤال، ولنعد إلى الوراء لنقرأ على عجل بعضا مما كُتب حول ولادة هذه المهنة ونشأتها وتحولاتها، ففي ذلك ما قد يساعد على الإمساك ببعض عناصر الإجابة.

في البدء كانت السياسة والأدب وإن لبسا جبة الصحافة. تقول الدراسات التي تؤرخ للمهنة إن أول صحيفة أسست بالمعنى الحديث للكلمة، واسمها صحيفة «لاكازيت»، صدرت عام 1631. وكان صاحبها ثيوفراست متخصصا أول الأمر في تجميع المعلومات المتعلقة بالمحاكم ونشرها، دون أن يحظى عمله هذا بأي تقدير في المجتمع، بل كان ينظر إليه كمن يمشي بين الناس بالنميمة وهتك الأستار. وتلك قصة أخرى، فالاعتراف الاجتماعي بالمهنة جاء متأخرا، وربما لم تحصل عليه بشكل كامل إلى اليوم.

قبل تجربة «لاكازيت» وبعدها، صدرت منشورات كثيرة تصدق تسميتها بالصحف، لكن من كانوا يكتبون فيها أطلقت عليهم كل الأسماء إلا أن يكونوا صحفيين. فهم أدباء وسياسيون ومفكرون، ومعظمهم لم يحصلوا على الاعتراف الكامل بجدارتهم في ميدانهم الأول، فكانت الصحافة ملجأهم. كانوا يمارسون

«الصحافة» من بوابة النضال السياسي أو البحث عن الانتشار، دون أن تمثل بالنسبة لهم عملا مهنيا أو عملا قارّا. أما مهنة الصحفي بهذا الاسم فلم تظهر إلا عام 1864.

بعد عقود، استوت المهنة على شكلها الذي يعرفه كل الناس، لكنها لم تتخلص من «خطيئة الولادة». انتصرت في معركة الاعتراف الرسمي والاجتماعي، لكنها لم تستطع ترسيم حدودها ولا تسييج ميدانها، وما زال يُنظر إليها سوسيولوجيًا بأنها «شبه مهنة».

ثمة تداخل جدلي بين الصحافة كمهنة وحرية التعبير كقيمة.

حينما تختل السلطات الأخرى، تبرز الصحافة كسلطة مضادة تحظى بنوع من التفويض الشعبي غير المعلن (تصوير: ديفيد ديجنر - غيتي).

في اللحظات الديمقراطية الكبرى، لابد أن ينحاز الصحافي لصوت الشعوب (تصوير: موسى قواسمة - رويترز).

ليس في الأمر انتقاص من الصحافة، بل ثمة التباس، ومرده تداخل جدلي بين الصحافة كمهنة وحرية التعبير كقيمة. فالصحفيون يمارسون مهنتهم وفقا لقيمة حرية التعبير التي هي في الأصل مكفولة لجميع المواطنين. وبمقتضى هذه الحرية يمكن لأي مواطن أن يصبح «صحفيا» حتى لو لم يتم الاعتراف به من قبل الهيئات المنظمة لممارسة المهنة في بلده. من يمكنه الآن منع فرد من تسمية نفسه صحفيا، أو حتى من إنشاء وسيلته الإعلامية الخاصة، ولتكن مجرد قناة على اليوتيوب أو صفحة على الفيسبوك؟

جاءت الثورة التكنولوجية وأضافت عبئا آخر على مهنة تبدو القواعد فيها سائلة سيولة المفاهيم ذاتها: الموضوعية، الحياد، المهنية.. وغيرها.

السؤال الذي طرحناه في البداية سيغدو أكثر إلحاحا مع هذه الثورة التقنية. لنُعد طرحه: أين ينتهي دور الصحفي؟ وأين يبدأ دور المناضل؟

القراءة التاريخية السريعة تقول لنا إن علاقة الصحافة بالسياسة عند لحظة الولادة كانت أشبه ما تكون بتوأم سيامي، ويبدو أن عملية الفصل لم تنجح تماما حتى الآن.

ليس ثمة من هو معني بالإجابة عن عملية فصل الصحافة بالسياسة أكثر من الصحفيين أنفسهم، فلنطرح عليهم السؤال: هل تعتبرون أنفسكم ناقلين للخبر أم مناضلين؟ هل أنتم محايدون أم منخرطون؟ هل تعتبرون أن دوركم مجرد «وساطة» بين

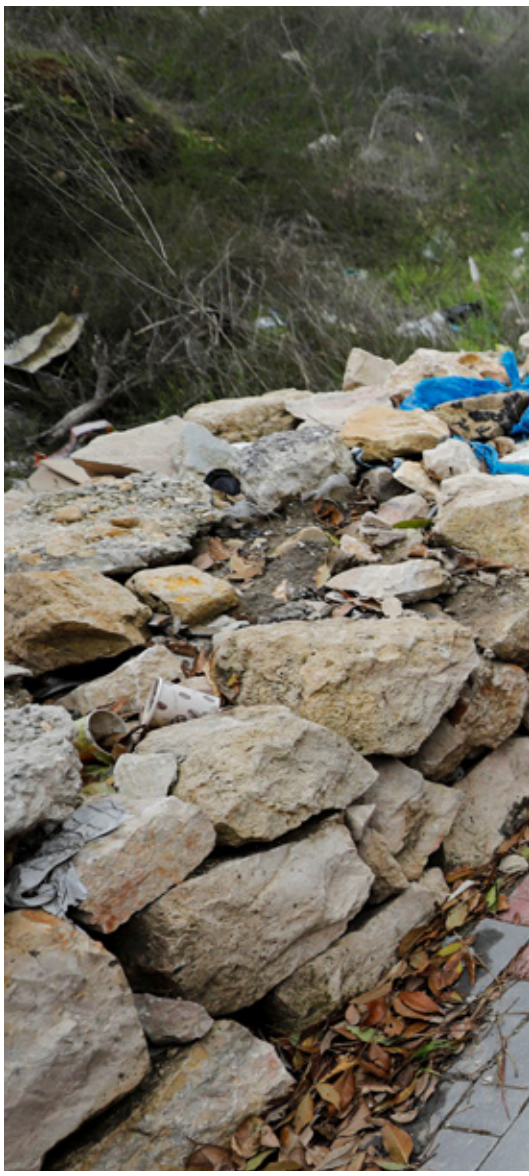

مصادر الخبر والجمهور، أم أن مهمتكم تتجاوز ذلك؟

هذه الأسئلة ليست جديدة، وهي تلخص السجال النظري بشأن وظائف الصحافة بين الوظيفة العاكسة التي تقول بأن الصحافة يجب أن تعكس واقع الحال كما هو بإيجابياته وسلبياته دون تدخل، وبين الوظيفة الفاعلة التي ترى أن من مهام الصحافة التطلع إلى استنبات واقع جديد. والحدود بين هاتين الوظيفتين غير مرسومة بشكل دقيق، إذ ثمة تداخل كبير بينهما، وجدل مستمر لم ينته بعد.

في الولايات المتحدة، بينت الدراسات أن الصحفيين يميلون إلى تفضيل الموضوعية وعدم المشاركة، وذاك على خلاف المدرسة الفرنسية التي عرف عنها تاريخيا تفضيل انخراط الصحفيين الحزبي والأيدولوجي. أما في العالم العربي فهناك نزوع عام نحو تبني الصحافة باعتبارها منبرا للخطابة وميدانا للنضال وساحة للمعارك السياسية، بل ومدرسة للتعليم.

في دراسة أنجزتُها حول صحفيي المغرب، قال ثلثا المستجوبين إنهم يؤمنون بدور الصحفي المنخرط الذي يدافع عن الطبقات الضعيفة في المجتمع، ويساهم في الإصلاح السياسي، بينما رأى الثلث الآخر أن دور الصحفي يجب أن ينحصر في نقل الأخبار فقط.
فعلى هذا المستوى، هناك إقرار بأن مهنة الصحافة بشكل عام لا يمكن أن تتجرد من الذاتية. وعلى الرغم من أن الفصل بين «الرأي» و«الخبر» يمثل مسلمات الصحافة الحديثة، فثمة من يسأل هل يمكن للخبر أن يكون مجردا عن الأهواء، أم أن التحيز يمثل بشكل من الأشكال جزءا من العملية الإخبارية؟

إن وظائف الصحافة على هذا المستوى تتجاوز حدود الإخبار إلى أدوار متعددة موزعة على مهن أخرى: المعلم، والفقيه، والمناضل الاجتماعي، والمناضل السياسي. وترتبط هذه القناعة بأخرى أكثر بداهة في الوسط الإعلامي، تتمثل في كون الصحفي ممثلا للشعب أو لرأي أغلبيته. فالصحفي يتمتع -وفقا لهذه القناعة- بتفويض شعبي غير معلن وغير ملموس، فلا أحد انتخبه، ولا أحد طلب منه الحديث باسم الشعب، ولا أحد خوّله هذا الحق في عملية انتخابية أو غيرها، ولكنه يمنح نفسه هذا الحق منطلقا من مهنة الصحافة ذاتها لأسباب تاريخية ارتبطت بنشأة هذه المهنة. والصحفي يتصرف بمقتضى هذا التمثيل الذي يمنحه نوعا من السلطة الرمزية.

هذا نقاش نظري يقول فيه الصحفيون ما يرون أنه أمثل للمهنة وأنبل لها، وهم يقولون إنهم يفضلون الانخراط في القضايا التي يعالجونها. وإذا ألقينا نظرة على الممارسة المهنية فلن نجد نقيضا لهذا القول، رغم أن الصحفيين حريصون على ما يسمى «الطقوس الشعائرية للصحافة». تلك الطقوس التي تجعلهم يبدون كما لو كانوا متوازنين، ومهنيين، وقريبين من الحقيقة. كأنما «التحيز» والعبور بين وظيفتي «الصحفي» و«السياسي» يتم بسلاسة و«بكل مهنية».

ولنبدأ من المهمة الأولى التي يبدأ بها الصحفي يومه؛ اجتماع التحرير. في هذا الاجتماع يقوم الصحفي/المؤسسة بمهمة «حارس البوابة».

وحارس البوابة مرتبط بنظرية في علم الاجتماع الإعلامي تقول إن الصحفي عليه أن يختار كل يوم مجموعة محددة من الأخبار من بين كم كبير منها، وهو في ذلك يقوم بدور

هل يمكن أن يكون الخبر مجردا من الأهواء أم أن التحيز يشكل جزء من العملية الإخبارية (تصوير: علي حاج سليمان).

حارس يسمح لبعض الأخبار بأن تمر من البوابة التي يقف عليها ويمنع أخرى.

ما هي المعايير التي تحدد اختيار الصحفي أو رئيس التحرير لهذا الخبر وإغفال ذاك؟ وبناء على أي أساس يتم التركيز على خبر وجعله عنوانا رئيسيا، وعدم الاهتمام بآخر وتقديمه بشكل مختصر؟

يجيب الصحفيون المبتدئون بسعادة غامرة بأن عملية الانتقاء تحكمها معايير مهنية صرفة يلخصونها غالبا في الجدة، والأهمية، والطرافة وغيرها مما تلقوه في معاهد الصحافة. لكن ما لا يقوله الصحفيون عادة، هو أن هناك اعتبارات أخرى أحيانا تتدخل في عملية الانتقاء وفي طريقة المعالجة، وهي اعتبارات ليست دائما مهنية، تبدأ بتوجيهات مسؤولي المؤسسة الذين لهم علاقاتهم مع جهات أخرى من السلطة وأصحاب النفوذ، ولا تنتهي بمواقف الصحفي السياسية أو حتى حساباته المصلحية والمالية أحيانا.

والمهم بالنسبة للصحفي في كل هذا، أن يقدم الخبر أو التقرير بصورة ظاهرها على الأقل مهني، متوازن، موضوعي، تماما كحكم القاضي الذي يهمه أن يصدر هذا الحكم مطابقا لنص القانون، ومعللا بشكل كاف.

لنتحدث عن الأمر بوضوح: إن الرؤية التي تعتبر أن الصحفي مجرد وسيط، ودوره ليس سوى نقل صورة عما يحدث في «العالم الحقيقي» بكل أمانة وتجرد، تبدو مثالية إن لم تكن ساذجة. والصحفي يصعب عليه عادة التجرد من ذاته ومن نظرته الخاصة للعالم، ولا يمكنه أن يتحول إلى مجرد مرآة أو آلة فوتوغرافية تنقل الوقائع، دون أن يضفي عليها بعضا من روحه، فذاك يخالف طبيعة البشر والمهنة. وهو إن رغب في ذلك ينتمي إلى

مؤسسة لها خطها التحريري ووجهتها السياسية، ولا يملك من أمره خيارا.

لذلك، في تعريف آخر للخبر، يمكن القول إنه نتيجة لتفاعل عناصر متعددة بعضها مرتبط بالبنية الاقتصادية للمؤسسة الإعلامية، وبعضها الآخر بالمناخ الثقافي الذي توجد فيه هذه المؤسسة، وأخرى مرتبطة بمصادر الأخبار وتدبير المنافسة مع بقية وسائل الإعلام. والصحفي يعيش على إيقاع مفاوضات مستمرة مع فاعلين كثر: مالكي وسائل الإعلام، والمؤسسات السياسية، ومجموعات الضغط، والمعلنين.. والتفاعلات بين مختلف هؤلاء الفاعلين هي التي تؤدي إلى الصياغة النهائية للخبر.

ولا يحتاج الصحفي للقيام بهذا الدور إلى الإعلان عن مواقف مناصرة أو معادية لفكرة أو سلطة أو جهة، بل إن العملية المهنية برمتها بدءا من انتقاء الخبر، ومرورا بالصياغة واللغة المستعملة، وصولا إلى الإخراج، كلها تصب في المصب ذاته. لعله من المناسب القول إنه لا يوجد شيء اسمه الحياد. الحياد هو درجة الصفر من المشاعر تجاه قضية أو شخص، وهذا أمر لم يُؤت لبشر. وهو مجرد فكرة هلامية تنتمي إلى عالم النظريات التي لا أصل لها. لكنه من المناسب أيضا مطالبة الصحفيين -ومؤسساتهم- بأن الحقيقة تأتي على رأس الأولويات، وليس التوجيه بشكل مباشر أو غير مباشر. وأقدس الواجبات هو نقل الأخبار وتحليلها وبسط خلفياتها بدقة ونزاهة، ودون اعتبار للخلفيات السياسية أو الأيدولوجية أو المالية.

إن هذا اللبس المرتبط بتصور الصحفيين لأدوارهم في المجتمع، يجد أثره في المجتمع أيضا، حيث إن فهم الناس للصحافة ودورها متباين بتباين الطبقات الاجتماعية والمستويات التعليمية.

وأختم بهذه القصة التي حكاها لي وزير الاتصال ونقيب الصحفيين المغربي الأسبق العربي المساري رحمه الله عام 2010 في بيته بالرباط. يقول المساري: في العام 1976 ترشحت للانتخابات التشريعية في منطقة قروية شمالي المغرب، وكان الناس يسألون عن مهنتي، فكنت أجيب بأنني صحفي، فيسأل الناس: وما معنى صحفي؟ فيقول رئيس الحملة: الصحفي رجل يرى ما يحدث في الدنيا ويتابع أحوال الناس، ويكتب عن ذلك. فيقولون: هو إذن شرطي، فيرد: لا.. الصحفي يفتح عينيه جيدا على العالم، ويصغي للناس كي يشرح لهم الأمور لكي يفهموا ما يجري، فيقولون: إذن هو فقيه».

إن هذه القصة معبرة جدا، فصورة الصحفي في المتخيل الشعبي تتراوح بين سلطة الشرطي وسلطة الفقيه. ويبدو أن الصحفي نفسه لم يحسم الأمر أيضا.

المصادر:

1- Sandrine Leveque, Analyser la profession journalistique» par le bas», Ouvrage collectif, Harmattan, Paris, 2004, P : 21.

2- محمد البقالي، سؤال المهنية والأيدولوجيا في الصحافة.

3- عثمان بنعمان، بؤس الصحافة ومجد الصحفيين، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 2009، الدار البيضاء، ص: 56.

4- Grégory Derville, «Le journaliste et ses contraintes», Les Cahiers du journalisme; N: 6, Lille, Oct 1999, pp : 152-160.

5- العربي المساري، مقابلة مع الباحث.

الصحافة كوسيلة للدعاية الأيديولوجية

سميح صعب

في بلد يمتزج فيه كل شيء بالسياسة، تمثل الصحافة اللبنانية نموذجا أصيلا «للمناضل الصحفي». ولفترة طويلة، لم يكن الفرز ممكنا بين «القبعتين»، ولا يظهر أنهما سيفكان الارتباط عما قريب.

مع الحرية النسبية التي يتمتع بها لبنان، ونشوء أحزاب سياسية متعددة ومتنوعة، أسست هذه الأحزاب صحفا ناطقة باسمها. وتمرس في الصحف كتّاب تحولوا فيما بعد إلى مناضلين حزبيين خاضوا غمار السياسة في مختلف وجوهها، وتعرضوا للاضطهاد والملاحقة، وبعضهم للسجن وحتى القتل.

وشكلت تجربة لبنان في الإعلام الحزبي حالة خاصة، حيث أثر في مجرى الحياة السياسية في الداخل وفي المحيط، كما أن المناضلين السياسيين في الأحزاب اللبنانية، مؤثرين بدورهم في صناعة الجدل السياسي القائم، لبنانيًا وعربيًا، وبات ذلك مصدر ثراء فكري للصحافة والعمل الصحفي عموما.

اتسم الصحفيون الحزبيون -ونحن نتحدث في الواقع عن قادة حزبيين- بالقدرة على التأثير الكبير في الرأي العام، إلى درجة كانت تخشاهم السلطات، فلجأت إلى التضييق عليهم بالقمع والاعتقال والتعذيب.

منذ البدء، كان المناضل الحزبي لصيقا بمهنة الصحافة رغم المتاعب التي كان يتعرض لها. وكثيرًا ما كانت السلطة تتعلل بمقال معين لقيادي حزبي من أجل اعتقاله وإخضاعه للمحاكمة.

وتجلّى ذلك في حالة الحزبين الشيوعي والسوري القومي الاجتماعي، إذ كانت السلطة ترد على الانتقادات القاسية التي تخرج بها الصحافة التابعة لهما، باعتقال صاحب المقال وتعطيل الصحيفة التي نشرته بأمر من المحكمة.

هذا التماهي بين النضال الحزبي السياسي والصحافة، لم يزعج السلطات اللبنانية وحدها، بل أيضا في سوريا بسبب الانتقادات التي كان يوجهها قادة حزبيون في لبنان وعبر الصحف اللبنانية، للحكم في سوريا أو في مصر، خصوصا أيام الوحدة بين سوريا ومصر.

الصحافة كانت دائما منصة للتدافع الأيديولوجي بين الأحزاب والتيارات السياسية (تصوير: محمد عزاقير - رويترز).

الكثير من الصحفيين تحولوا إلى مناضلين حزبيين تعرضوا للاضطهاد والملاحقة وحتى القتل.

وأبرز مثال ساطع على ذلك، كان اعتقال رئيس المخابرات السورية عبد الحميد السراج للقيادي في الحزب الشيوعي فرج الله الحلو وتعذيبه حتى الموت، وهو الذي كان صاحب قلم مزعج للسلطة.

كما تعرضت قيادات في الحزب السوري القومي الاجتماعي للاعتقال والسجن بسبب مقالات كانوا ينشرونها في صحف حزبية أصدروها في مراحل مختلفة. ومن مؤسس الحزب أنطون سعادة إلى قياديين آخرين أمثال جورج عبد المسيح وأسد الأشقر وعبد الله قبرصي وعبد الله سعادة وإنعام رعد، كل هؤلاء تعرضوا لعقوبات مختلفة بسبب مقالات كتبوها في الصحافة الحزبية.

ويد الرقيب على الصحافة الحزبية لم تكتف فقط بالمضايقات، بل إن غسان تويني صاحب جريدة "النهار" المستقلة تعرض للسجن ثلاثة أشهر لكتابته مقالا انتقد فيه حكم الإعدام الذي نُفذ بحق أنطون سعادة يوم 8 يوليو/ تموز 1949. وكان تويني من القيادات القومية في السابق.

لا شك أن العلاقة عضوية لا تنفصم بين أن تكون مناضلا تنفصل حزبيا وأن يكون القلم وسيلة تعبير تستوعب النضال والعمل السياسي.

في ذروة النضال الحزبي دفع صحفيون ثمنا غاليا بسبب مواقفهم، دون أن يكونوا منخرطين في أحزاب بعينها، لكنهم تبنوا مواقف جريئة أو حادة حيال زعماء في السلطة، مثل نسيب المتني صاحب جريدة "التلغراف" الذي عارض الرئيس كميل شمعون عام 1958، وكان اغتياله من الأسباب التي أدت إلى اندلاع "ثورة 1958". كما اغتيل الصحفي كامل مروة عام 1966 وهو المعروف بمعارضته للمدّ الناصري آنذاك. واختطف الصحفي سليم اللوزي وعثر على جثته في مارس/ آذار 1980. كما اغتيل صحفيون عرفوا بمعارضتهم للوجود السوري في لبنان، وأبرزهم رئيس مجلس إدارة صحيفة "النهار" النائب جبران تويني وسمير قصير عام 2005.

خصوصية لبنان

في مرحلة ما بعد الانتداب الفرنسي، شكل لبنان موئلا لحرية نسبية مقارنة بدول الجوار العربي التي لم تدم فيها التجارب الديمقراطية إلا سنوات معدودة قبل أن تخرج الجيوش من الثكنات لتتسلم الحكم تحت شعارات براقة، أكثرها رواجا كان الإعداد لتحرير فلسطين. وحتى الآن، لا فلسطين تحررت، ولا العالم العربي عرف الديمقراطية، بينما اقتصادات دوله تزداد سوءًا.

الحرية التي أتيحت للبنان رافقها تأسيس أحزاب حتى في مرحلة الانتداب الفرنسي التي تلت زوال الحكم العثماني في الشرق إثر الحرب العالمية الأولى والهزيمة التي لحقت بالإمبراطورية العثمانية المتحالفة مع ألمانيا. وكما ازدهرت الصحافة المستقلة في لبنان، أتاحت الحرية النسبية تأسيس الأحزاب، منها الموالي للسلطة ومنها المعارض ومنها اليساري ومنها اليميني.

وعمدت الأحزاب إلى إصدار الصحف الخاصة بها، وتكونت بذلك نواة الإعلام الحزبي في لبنان، الذي كان يعبر عن مواقف الأحزاب من الأحداث السياسية الجارية من جهة، ويخدم كمادة للتوجيه السياسي والمعنوي للمتحزبين من جهة ثانية. وبصيغة أخرى، كانت الأحزاب تعتبر أن إصدار مطبوعة باسمها جزءًا لا يتجزأ من تكوين الحزب نفسه. فالحزب لا يصير حزباً مكتملا التكوين، من دون صحيفة تنطق باسمه.

مرت على لبنان فترة ازدهرت فيها الصحافة الحزبية على قدم المساواة مع الصحافة المستقلة، واجتذبت صحفيين جمعوا بين الخلفية المهنية والثقافية. والصحفي الحزبي بطبيعته مشبع بثقافة

حاول صحافيون أن يخرجوا من مظلة النقابة القديمة التي تطغى عليها الصراعات السياسية على حساب المهنة (صفحة نقابة الصحافة البديلة على فيسبوك).

سياسية نابعة من فهم حزبه للأحداث والتطورات. وعلى هذا الأساس، تسلم الكثير من قادة الأحزاب مهمة رئاسة تحرير الصحف الناطقة باسم أحزابهم.

الأحزاب اليسارية في لبنان كانت تاريخيًا أغزر إنتاجا في مجال الصحف، إذا ما قورنت بأحزاب اليمين. ومن رحلة اليسار في الصحافة يقفز إلى الذاكرة دور واسع للحزب الشيوعي وقيادييه في تأسيس الصحف. ومنذ تشكيل الحزب في العشرينيات (سمي آنذاك الحزب الشيوعي السوري اللبناني)، تأسست مجلة "نضال الشعب" السرية في عهد الانتداب، ومن بعدها كانت "صوت الشعب"، وفي وقت لاحق مجلات "الطليعة" و"الطريق" و"الأخبار".

والحال أن رؤساء تحرير هذه الصحف هم أنفسهم القياديون في الحزب، أمثال فرج الله الحلو ونقولا شاوي وأنطوان ثابت. والتصق النضال الحزبي بالعمل الثقافي والتوعوي عبر المواقف التي كان يكتب عنها هؤلاء، فباتت الصحافة جزءًا لا يتجزأ من صنع صورة المناضل الحزبي.

ولا يشذ عن تلك القاعدة رئاسة محسن إبراهيم لمجلة "الحرية" الناطقة باسم القوميين العرب، قبل أن يؤسس لاحقا منظمة العمل الشيوعي. وتولى فواز طرابلسي رئاسة تحرير مجلة "بيروت المساء" التي كانت تصدر عن المنظمة.

كما أسس الحزب الاشتراكي مجلة "الأنباء" التي كان يكتب فيها مؤسس الحزب كمال جنبلاط مواقف الحزب وتوجيهاته ويشرح أفكاره، وبعدها احتضنت افتتاحيات الوزير السابق وليد جنبلاط. ولعل من أشهر رؤساء تحرير "الأنباء" الدكتور سامي ذبيان. وعلى جبهة الأحزاب اليمينية، أصدر حزب الكتائب جريدة "العمل" التي ارتبط اسمها إلى حد بعيد باسم رئيس تحريرها جوزف أبو خليل الذي يعتبر من الشخصيات المقربة من بيار الجميل مؤسس حزب الكتائب. ومن أبرز كتابها إلياس ربابي أحد كبار شخصيات الحزب. واشتهر أيضا من كتابها فؤاد حداد المعروف بلقب "أبو الحن".

هل يمكن أن يكون الصحافي الحزبي موضوعيا ونزيها؟
(تصوير: سام تارلينغ – غيتي).

وأصدر حزب الأحرار الذي كان يترأسه رئيس الجمهورية السابق كميل شمعون جريدة "الأحرار". وحاليا يصدر حزب "القوات اللبنانية" مجلة "المسيرة-النجوى"، ويملك إذاعة "لبنان الحر".

وفي فترة ما، أصدر حزب النجادة الذي أسسه رئيس الوزراء السابق عبد الله اليافي جريدة "صوت العروبة". وكانت الجماعة الإسلامية (تنظيم الإخوان المسلمين في لبنان) تصدر مجلة "الشهاب"، وهي تصدر من وقت إلى آخر مجلة باسم "الأمان".

وفي السياق نفسه، أصدرت حركة "أمل" برئاسة رئيس مجلس النواب نبيه بري في الثمانينيات والتسعينيات مجلة "العواصف". وتعود ملكية تلفزيون "أن.بي.أن" للحركة الآن. أما حزب الله فيصدر مجلة "الانتقاد" إلكترونيًا، ويملك تلفزيون "المنار".

هذه الباقة المتنوعة من وسائل الإعلام، هيمنت في يوم من الأيام على مساحة واسعة من الساحة الثقافية في لبنان، واستحوذ كتابها على النصيب الأكبر من الجدل القائم، والتصقت أسماء كتابها بصفة النضال الحزبي.

وعلى هذا الأساس، اتخذت صحف اليسار موقفا داعما للقضية الفلسطينية منذ أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، وصولا إلى الحرب الأهلية عام 1975 وما بعدها. أما صحف اليمين فالتزمت موقفا مضادّا اعتبر العمل الفدائي الفلسطيني خطرًا على لبنان. وقد ذوت الصحافة الحزبية في لبنان بعد الحرب الأهلية بسبب افتقارها إلى التمويل، بالإضافة إلى أن الأحزاب نفسها ضعفت وافتقدت الزخم العقائدي والمحفزات الأيدولوجية. ولجأت أحزاب كثيرة إلى الإعلام الرقمي لكونه غير مكلف ماديًا مقارنة مع إصدار صحيفة.

وفي الوقت الحاضر يضغط الانهيار الاقتصادي في لبنان على مجمل وسائل إعلامه من مطبوع ومسموع ومرئي. ومن غير المعروف مآل الكثير من الوسائل الإعلامية التي تعاني صعوبات مادية خانقة بفعل النقص الفادح في الإعلانات. ربما يشكل لبنان تجربة فريدة في خوض تجربة الإعلام الحزبي في زمن استأثرت فيه الأيدولوجيا بحيز واسع في المجتمع. أما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة، فإن الكثير من الأحزاب التي كانت تتغذى من الصراع الأيدولوجي بين الشرق والغرب، دخلت في مرحلة المراجعة الذاتية، وبعضها انتفت الحاجة إليه.

ومع زحف عصر العولمة بفعل ثورة الاتصالات، باتت فكرة الجدوى من تأسيس حزب بحد ذاتها موضع إعادة نظر. والكثيرون يسألون في عصرنا الحالي: هل ما يزال المناضل الحزبي قادرا على ممارسة الصحافة بقواعدها المعروفة؟

أبطال بلد مجد

جمال بدومة

الصحفي شاهدٌ يبحث عن الحقيقة، ومن شروط الشهادة المهنية والموضوعية. لكن حينما يتدثر السياسي بالصحافة تتقلص مساحة الحرية وتبدأ الأيديولوجيا التي من وظائفها معاداة الحقيقة.

بين السياسة والنضال خيط رفيع. البدايات كانت ملتبسة في معظم التجارب العالمية. عندما ظهرت أولى المغامرات الصحفية، كان من الصعب أن تفرق بين الصحفي والسياسي، والأديب أحيانا. السياسيون والأدباء هم من أسسوا الجرائد، ومع مرور السنوات والأعداد تحولوا إلى صحفيين يكتبون الافتتاحيات والتعليقات، ويجرون التحقيقات والحوارات، خدمة لأفكارهم ولقناعاتهم الأيدولوجية، وإخلاصًا لهذه الحرفة الجديدة التي ستسمى فيما بعد «مهنة المتاعب».

الفترة الذهبية للجرائد الحزبية والدعائية باتت جزءا من الماضي، رغم أن بعض هذه الصحف ما زال يقاوم، حتى في بعض الدول المتقدمة. في فرنسا مثلا، ما زالت جريدة «إيمانيتيه» (Humanité) تواصل الصدور. هذه الصحيفة التي أسسها جان جوريس -أحد آباء اليسار الفرنسي- عام 1904، كانت لسان الحزب الشيوعي الفرنسي منذ العام 1920 إلى العام 1994، ثم لم تعد ترتبط بالحزب تنظيميًا، لكنها ما زالت تدور في فلك اليسار، تدافع عن أفكاره وتخوض معاركه.

أما الأيدولوجيات الشمولية فلم تقرّ يوما بالحدود بين السياسة والصحافة وبين الدعاية والإعلام، كما كان عليه الأمر في ألمانيا النازية وروسيا السوفياتية.

قبل مدة، توفي الصحفي الفرنسي جان دانيال عن سن تناهز المئة عام. «ضمير الصحافة الفرنسية» كما أطلق عليه بعض زملائه، يختصر لوحده العلاقة بين السياسة والإعلام في أحد أعرق البلدان الديمقراطية. جان دانيال بنسعيد (اسمه الحقيقي) ولد في مدينة البليدة عام 1920، أيام كانت الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي، وبدأ حياته سياسيًا، مع ولع مبكر بالأدب والفلسفة. كان بإمكانه أن يصبح كاتبًا مثل صديقه ألبير كامو، لكنه تلقى صفعة عام 1940 غيرت مسار حياته.

عندما احتل الألمان فرنسا، قررت حكومة الماريشال فيليب بيتان المتعاونة مع النازيين، أن تسقط الجنسية الفرنسية عن يهود الجزائر. وهكذا وجد الشاب جان دانيال نفسه بلا

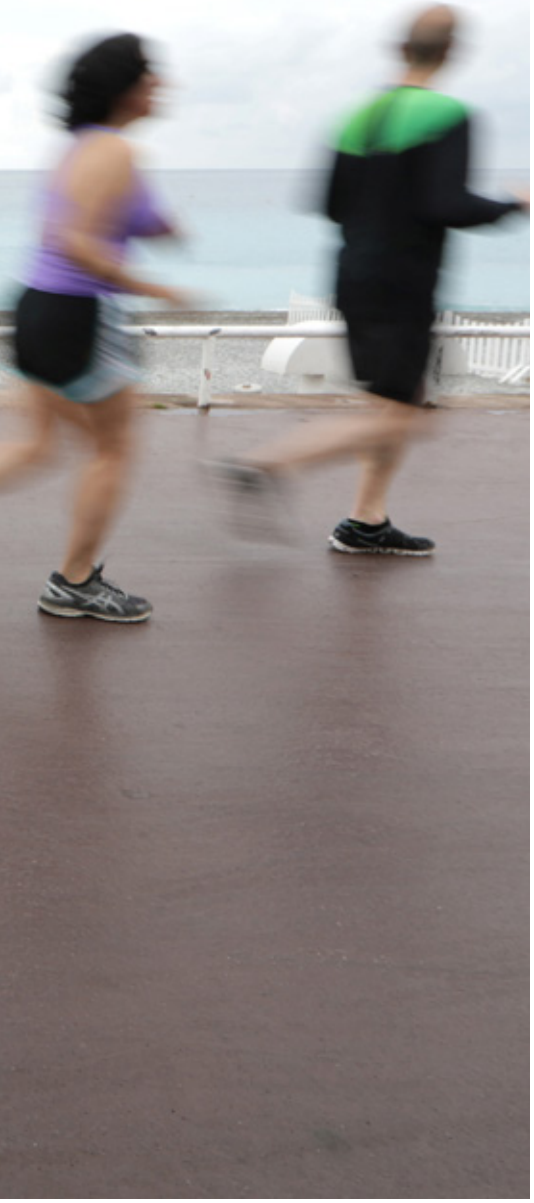

هوية، ولم يتردد في التخلي عن طموحاته الأدبية، والتفرغ للمقاومة. المقاومة التي ستظل عنوانًا عريضًا لمعاركه الصحفية فيما بعد. في 8 يونيو/حزيران 1940، ألقى الجنرال شارل ديغول خطابًا تاريخيًّا على أمواج إذاعة «بي.بي.سي»، ندد فيه بالعار الذي ألصقه الماريشال بيتان بفرنسا، ودعا مواطنيه في كل أصقاع الجمهورية إلى المقاومة وعدم الاستسلام.

الشاب جان دانيال لم يتردد في تلبية نداء ديغول والتحق به في لندن، وفي أغسطس/آب 1944 كان ضمن كتيبة الجنرال لوكليرك التي حررت باريس. كانت الطريق معبدة أمامه كي يصبح سياسيا أو دبلوماسيا ذا شأن في فرنسا ما بعد الحرب العالمية الثانية، مثل أندري مالرو وجورج بومبيدو وسان جان بيرس، لكنه اختار طريقا آخر.

بعد مرور سريع من ديوان رئيس الحكومة المؤقتة فيليكس غوان عام 1946، انتقل جان دانيال بسلاسة إلى عالم الصحافة. ولعه بالأدب هو الذي دفعه إلى تأسيس مجلة أدبية رفقة صديقه ألبير كامو، أطلقا عليها اسم «كاليبان» (Caliban) استلهاما من شخصية شهيرة في مسرحية «العاصفة» لشكسبير.

هكذا استدرجت الصحافة جان دانيال حتى وجد نفسه غارقا في «مهنة المتاعب»، لا ينهي تجربة حتى يبدأ أخرى. الفاعل تحوّل إلى شاهد. فيما بعد، سيهيمن جان دانيال على

صحافة اليسار واليمين هددت قواعد المهنة، التي أساسها الحياد والموضوعية (تصوير: إيليك غايلدر - رويترز).

الصحافي جان دانييل، مات وهو ما يزال مؤمنا أن الصحافة لا يمكن أن تنفصل عن النضال (تصوير: جاما رافو – غيتي).

المشهد الصحفي الفرنسي لأكثر من ستة عقود، وستظل خلفيته السياسية تتحكم في مواقف مجلته الشهيرة «لونوفال أوبسرفاتور» التي أسسها عام 1965، بعد مرور سريع من مجلة «لكسبرس»، ولا يمكن لأحد أن يتخيل المشهد الإعلامي الفرنسي اليوم بدون مجلة «لوبس» وروحها، المشكّلة من خلطة فريدة تمزج الصحافة بالالتزام والفلسفة والأدب.

إبان ثورة التحرير الجزائرية

في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات، اشتهر جان دانيال بتغطيته الجريئة المنحازة إلى «جبهة التحرير الوطني»، مما جعل حياته تتعرض للخطر على أيدي «المنظمة المسلحة السرية» التي حاول بعض أعضائها اغتياله. الموقف من ثورة الجزائر فرّقه عن صديقه ألبير كامو الذي اشتهر بدفاعه المستميت عن بقاء الجزائر فرنسية، رغم اقتناعه بعدالة قضية الاستقلال، مرددًا قولته الشهيرة «بين العدالة وأمي، أختار أمي».

عام 1963، وفي عز ما عرفت بقضية «أزمة الصواريخ الكوبية» بين موسكو وواشنطن، تمكن جان دانيال من انتزاع حوار حصري مع الرئيس الأميركي جون كينيدي. ولأن مستشاريه قدموا له الرجل جيدًا، وأدرك أنه يساري عنيد بقبعة صحفي، فقد طلب منه كينيدي أن يبلغ رسالة إلى الرفيق فيدال كاسترو. وفي 22 نوفمبر/تشرين الثاني 1963، كان جان دانيال يتناول وجبة الغداء مع كاسترو، حين وصلهما الخبر الصاعق: لقد تعرض جون كينيدي للاغتيال! بين الفاعل والشاهد خيط رفيع في حالة جان دانيال وكثير من الصحفيين المؤسسين لمنابر إعلامية عبرت العقود والأجيال، والقرون أحيانا. لكن، عندما يسيطر السياسي على الصحفي يضيق أفق الحرية ويتقلص هامش التعبير، لأن الأول يدافع عن معسكر بعينه، عن حزب ومصلحة، بينما يهتم الثاني بملاحقة الوقائع وتحليلها، ونشر الحقائق، أو ما يعتبره كذلك، بعد الفحص والتثبت من أكثر من مصدر.

> **الصحفي المناضل لا تهمه إلا الحقيقة التي تخدم مصالحه.**

السياسي طرف فيما يجري وفاعل أساسي في الأحداث، أما الصحفي فمجرد شاهد يرصد ما يدور وينقل الوقائع للرأي العام بعد أن يتحقق منها، وفق ضوابط مهنية متعارف عليها دوليا. الصحفي يفتش عن الحقيقة المجردة، يحاول أن يقدم القصة الأكثر وفاء لما حدث، أما المناضل فلا تهمه إلا الحقيقة التي تخدم مصالحه، هاجسه الرئيسي أن يؤثر في نقل ما جرى بالشكل الذي يناسبه ويخدم صورته، وأن يناور في الفعل والخطاب.

الصحفي محكوم بضميره وأخلاقيات مهنته، والسياسي محكوم بالتوازنات والمصالح، حتى عندما يتحدث عن ماضيه، يفكر في الحاضر والمستقبل، لذلك تكون شهادات السياسيين حافلة بالأكاذيب والمساحيق.

بين الصحفي والسياسي علاقة معقدة، تتأرجح بين التوجس والإعجاب، بين التبرير والتغرير. الصحفي يريد الخبر، والسياسي يريد الظهور. أحيانا يغضب السياسي من الصحفي ويقتص منه.. يحرمه من الأخبار أو يلاحقه أمام المحاكم، على سبيل التهديد والترويض.

باستطاعة السياسي أن يتحول إلى بطل، وأن يكون له أنصار وأتباع ومؤيدون، بخلاف الصحفي الذي يمكن أن يكون له قراء وأن يؤثر فيهم، لكنه يظل مجرد شاهد ومعلق على ما يجري، يحاول أن يفهم وأن يساعد الآخرين على الفهم، بلا بطولة ولا مجد.

الصحافة ليست نجومية، ولا ينبغي لها أن تكون. وكل من يقصد «مهنة المتاعب» كي يتحول إلى نجم أو بطل، يكون قد أخطأ العنوان. حين تندلع الحرب، البطل والنجم والشهيد هو من يمسك بالبندقية، أما الصحفي فشخص أعزل، سلاحه مهنيته، ومهمته أن يكون في الصف الأول، وأن يتعرض للخطر كي ينقل للعالم ما يجري.

الشاهد لا يمكن أن يكون شهيدا، ومجده الوحيد اعتراف القراء والمتابعين، أو من نسميهم عادة «الرأي العام».

أين ينتهي عمل الصحفي ويبدأ دور الناشط؟

(ترجم هذا المقال بالتعاون مع نيمان ريبورتس - جامعة هارفارد).
مايكل بلاندينغ

بين الصحافة والنشاط السياسي مساحة توتر ومنطقة سلام.. يتنافران، لكن يتقاطعان في آن. هذه قصص عن حدود التماس بينهما.

ظهرت ريبيكا شناید وهي رئيسة تحرير صحيفة «إيغل آي» التابعة لمدرسة «مارجوري ستونمان دوغلاس» على شبكة «سي إن إن»، لتقول إنها تعتبر الصحافة شكلاً من أشكال النضال (تصوير: مات ماكلين - واشنطن بوست - غيتي).

في ربيع العام 2018، وفي اليوم التالي لمسيرة "من أجل حياتنا" الحاشدة المطالبة بفرض قانون لضبط حيازة الأسلحة في الولايات المتحدة، ظهرت على شاشة "سي. أن.أن" ريبيكا شنيد المحررة المساهمة في جريدة مدرسة "مارغوري ستونمان دوغلاس" بمنطقة بارك لاند في ولاية فلوريدا، وهي المدرسة التي أطلق فيها مهاجم النار وقتل 17 شخصا في فبراير/شباط 2018.

قال مقدم البرنامج براين ستلتر واصفًا شنيد وطلابًا آخرين من صحيفة "إيغل آي" المدرسية التي غطت الحدث "أرى كثيرا من طلاب بارك لاند قد أصبحوا نشطاء، لكنكم حضرتم الفعالية بصفتكم صحفيين وحسب". جذبت المسيرة أكثر من 200 ألف شخص يدعون إلى فرض ضوابط على حيازة الأسلحة، بعد ستة أسابيع من حادثة إطلاق النار في المدرسة. سألها براين "هل ترين الخط الفاصل بين الصحافة والنشاط السياسي فيما تفعلينه؟".

شنيد التي ارتدت غلاف كتاب مكتوب عليه: "لقد طفح الكيل"، لم تتردد في الإجابة قائلة "أعتقد أنه بالنسبة لي، يكمن هدف الصحافة في أن تكون صوت من لا صوت لهم، ومن هذا المنطلق، أعتقد أن الصحافة شكل من أشكال النشاط السياسي".

وبررت عبارتها قائلة "هناك فرق بينهما بالنسبة لي، بوصفي صحفية، وبوصفي شخصا يطالب بالتغيير، لكني أعتقد أن الشراكة بينهما هي الوسيلة الوحيدة لإحداث تغيير".

هناك بعض القضايا لا تتحمل تعدد الآراء مثل تطرف مواقف اليمين.

ما إن نشرت "سي.أن.أن" تغريدة ذكرت فيها النصف الأول من عبارة شنيد، حتى هاج موقع تويتر، واتهمها تعليق تلو الآخر بأنها لا تفهم الفرق بين الصحافة والبروباغندا.

تعليقات كثيرة كانت تشير إلى أن الصحافة هي "تغطية الخبر وعرض الحقائق، ثم السماح لنا نحن القراء أو المشاهدين بتقرير آرائنا". وبينما جاءت بعض التعليقات أكثر حدّة، لامت تعليقات أخرى برايان ستلتر لعدم معارضته كلام ضيفته، واعتبرت موقفه دليلا على التحيزات الليبرالية للشبكة.

وكما أشارت دانييل تشولاكيا التي تدرس الصحافة بجامعة "نيو سكول" في مقالها على موقع "لونغ ريدز" (Longreads)، كان من بين نقاد شنيد عدد من الصحفيين المحترفين، مثل جوش كراوشار من صحيفة "ناشيونال جورنال" (National Journal)، الذي ألقى باللوم على تعليم الصحافة لتقصيرها في غرس روح الحيادية والموضوعية في الجيل الجديد. كتب كراوشار قائلا "هذه العقلية هي التي تقتل الثقة في مهنتنا".

لكن مراسلين آخرين دافعوا عن شنيد، فقد كتب مات بيرس من صحيفة "لوس أنجلوس تايمز" قائلا إن "اختيار ما تريد للناس أن يعرفوه هو نوع من النشاط، حتى لو لم يكن متعلقا بمظاهرة أو مسيرة". وقال مراسل صحيفة "واشنطن بوست" سويلي لوري "إن أي صحفي جيد هو ناشط لأجل الحقيقة ولصالح الشفافية والمساءلة".

ظلت الصحافة لمدة طويلة ملتزمة بالنقل المحايد للوقائع وبتسليط الضوء على المظالم في المجتمع. أصبح هذا التوتر بين المهمتين أوضح في لحظة الاستقطاب السياسي الراهنة التي تتحدى فيها حراكات مثل "حياة السود مهمة" (Black Lives Matter) و"طلاب بارك لاند" الوضع القائم. وقد جلبت حركة "مي تو" (MeToo) النشاط السياسي إلى غرفة الأخبار نفسها، مما دفع العديد من الصحفيين إلى التساؤل: أين تنتهي الصحافة ويبدأ النشاط السياسي؟ وأين يتقاطعان؟

تبرز هنا مشكلتان: الأولى هي الشعور السائد في كثير من غرف الأخبار بأن بعض القضايا لا تحتمل تعدد وجهات النظر، مثل حقوق المثليين أو أيدولوجيا تفوّق البيض. والثانية

كان يكتب ديزموند كول عموداً في صحيفة «تورونتو ستار»، إلى أن غادرها في العام 2017، على إثر مشاركته في احتجاجات لدعم السود (تصوير: ميليسا رينويك – تورنتو ستار – غيتي).

هي النقاش الدائر حول قدرة المراسلين على التعبير عن رؤاهم السياسية خارج غرفة الأخبار، على منصات التواصل الاجتماعي مثلا، أو المشاركة في المسيرات أو أي شكل آخر من أشكال الاحتجاج السياسي. حين يقول الرئيس إن هناك "أشخاصا جيدين جدا" في مظاهرة للقوميين المتطرفين البيض، هل يصبح وصف تصريحه بأنه "عنصري" وصفا محايدا، أم أنه يدخل في باب النشاط السياسي؟

حين تحتشد مئات الآلاف من النساء في مسيرة لدعم حقوق النساء وتمكينهن، هل يتجاوز الصحفي حدوده إن ناصرهن؟ حين تنتهك حقوق الأفراد المتحولين جنسيًا، هل تعيب الصحفيَّ المتحول جنسيًا مطالبتُه بالمساواة؟

يثار هذا الجدل في بعض الحالات على طول خط الاشتباك بين الأجيال، فترى الصحفيين الأكبر سنًا يميلون -على الأرجح- إلى الفصل بين الأخبار والآراء، في حين يرى الصحفيون الأصغر فروقًا أقل حدة ووضوحًا بين صورهم الخاصة والعامة.

يقول ألفريدو كارباخال رئيس الجمعية الأميركية لمحرري الأخبار ورئيس تحرير صحيفة "ألديا" (Al Día) في دالاس، إن كون المرء صحفيا يفرض عليه تضحيات معينة، "فنحن نتخلى عن صلاحيات يتمتع بها معظم المواطنين وهي التعبير عن آرائنا.. لا أستطيع الاحتفاظ بمصداقيتي إذا أعلنت الفرق بين ما أراه أنا كشخص وما أراه بوصفي صحفيا".

أما بالنسبة لبعض الصحفيين الشباب، فإن هويتهم الشخصية تظهر بشكل أوضح في كتاباتهم. يقول الكاتب الشاب بيتر موسكوفيتز (29 عاما) الذي ينشر كتاباته على منصات مثل موقع "سبلينتر" وأوتلاين وفايس، "أعتقد أن هذا الانقسام الجيلي ولد بسبب تداعي صناعة الصحافة".

وغطى موسكوفيتز مؤتمر شارلوتسفيل للقوميين البيض لصالح "سبلينتر"، وكتب لموقع "أوتلاين" مقالا من منظوره الشخصي يروي وقائع المؤتمر بما فيها اصطدام سيارة بالجمهور ومقتل المتظاهرة هيثر هيار التي كانت تقف للتنديد بموقف المتطرفين البيض.

يقول "أعتبر الكتابة جزءًا من نشاطي.. لا توجد طريقة للفصل بين هذه الأشياء.. حتى لو كنت تكتب لوسائل الإعلام الرئيسية، فأنت تدعو إلى شيء ما، وإن كنت لا تصرح بذلك".

أما وقد أصبحت غرف الأخبار أكثر تنوعاً، فقد برزت زاوية جديدة في النقاش. تقول مديرة قسم أخلاقيات الصحافة في معهد "بوينتر" إنديرا لاكشمنانان "لم يُعرف عن التقليد الكلاسيكي السائد في أي زمن من الأزمان أنه يمثل وجهة نظر الذكور البيض أصحاب الامتيازات".

وتضيف أن مؤسسات النشر في سعيها لعكس اتجاه معاييرها الأخلاقية، تخلت عن فكرة الموضوعية لصالح كلمات أخرى مثل "التجرد" و"الدقة"، لتعكس بشكل أفضل الفكرة التي تقول إن الصحفيين دائما ما يرون القضايا من وجهة نظر نابعة من خلفياتهم وتجاربهم.

حتى منصات النشر التي تعنى بقضايا معينة، والتي تجمع تمويلها غالبا من التبرعات، تتوق للوصول إلى حالة من التوازن بين الموضوعية واتخاذ موقف إزاء قضية ما ومناصرتها. المحرر السابق في صحيفة "نيويورك تايمز" بيل كيلر الذي يرأس الآن مؤسسة "مشروع مارشال" (Marshall Project) -وهي منظمة غير ربحية تحاول تسليط الضوء على مشاكل نظام العدالة الجنائية في الولايات المتحدة- يقول إنه يحافظ على نفس المعايير التي اتبعها أثناء عمله في الصحيفة بشأن تعبير الصحفي عن آرائه الشخصية، ويرى أن مهمة المؤسسة تتمثل في تقديم معلومات عن النظام ومكامن الخلل فيه، بدلا من الدعوة إلى طرق معينة لإصلاحه.

ويضيف "إننا نقدم معلومات موثوقة يستطيع أي أحد أن ينهل منها في مسعاه لتحقيق أهدافه، لكننا لا نقدم وصفات جاهزة ولا دعما لاتجاه معين.. نريد تقديم المعلومات للناس ليقرروا بأنفسهم".
ومع تداخل الصحافة مع النشاط السياسي في بعض المناحي، نرى بعض النشطاء

أيضا يلجون عالم الصحافة. وكما توضح مقالة نشرت مؤخرا في مجلة "كولومبيا جورناليزم ريفيو"، فإن دمقرطة شبكة الإنترنت دفعت منظمات النشطاء -ومن بينها اتحاد الحريات المدنية الأميركية وهيومن رايتس ووتش ومنظمة السلام الأخضر- إلى كتابة محتوى أصلي على موقعها يتجاوز مجرد السرد الصحفي. فمثلا، ينشر فريق المراسلين في اتحاد الحريات المدنية قرابة 20 مقالا صحفيا في الأسبوع على موقع المنظمة. تحدثت إحدى المقالات المنشورة مؤخرًا عن المخاوف المحيطة بشراكة "أمازون" مع الحكومة في تطوير برمجيات التعرف على الوجوه الخاص بها، واحتوت على تفاصيل وتقارير متعمقة من بينها طلبات السجلات العامة لكشف المزيد من التفاصيل عن القضية. وفي الوقت نفسه، كشفت عن المعلومات التي لديها بخصوص هذه القضية لصحيفة "نيويورك تايمز" ومنصات إعلامية أخرى نشرت مقالات متزامنة عن هذا الموضوع.

لطالما كانت التفرقة بين الصحافة والنشاط السياسي مدفوعة بالخوف من الاتهام بالتحيز المسبق. والغائب في هذه المخاوف هو هوية من يوجه الاتهام بالتحيز. وفي العقود الثلاثة الماضية، اتهمت أصوات في اليمين وسائل الإعلام السائدة بأنها ذات تحيزات ليبرالية، واستخدمت هذه المزاعم للتشكيك في تقاريرها.

في الحقيقة، يميل معظم الصحفيين فعلا إلى توجهات يسارية، وقد أظهر عدد كبير من الدراسات أن الصحفيين أميل إلى وصف أنفسهم بأنهم ليبراليون، وأميل إلى التبرع لمرشحين ديمقراطيين وينتمون إلى الحزب الديمقراطي بدلا من الجمهوري، رغم أن أكثر من نصف الصحفيين المشاركين في دراسة أجريت عام 2013 وصفوا أنفسهم بالمستقلين. فهل يعني هذا أنه ليس بإمكان هؤلاء أن يكونوا موضوعيين في تقاريرهم؟

ليس بالضرورة، بحسب تقرير نشره مركز "بيركمان كلاين" (Berkman Klein) للإنترنت والمجتمع في هارفارد الصيف الماضي. في الحقيقة، وجد التقرير أن ثقافة المساءلة أكثر شيوعا في اليسار والوسط، وثقافة التحيز الواضح تسود لدى أصحاب التوجهات اليمينية المتطرفة.

وقد وجد المركز في تحليله للمقالات الإخبارية التي يتم نشرها على منصات فيسبوك وتويتر خلال السنوات الثلاث الماضية، أن وسائل الإعلام تنقسم إلى منظومتين منفصلتين، إحداهما تقع في طيف يمثّل يمين الوسط إلى يسار الوسط تقريبًا. وتمت ملاحظة أن نفس المتابعين على منصات التواصل الاجتماعي أعجبوا وشاركوا تقارير من كل هذه المنصات، بل إن هذه المنصات نفسها كثيرًا ما نشرت روابط لبعضها البعض وعلقت على تقارير بعضها البعض.

يقول مدير المركز يوشاي بنكلر "المفاجئ هو مدى الارتباط الوثيق الذي يجمع كل هذه المنصات، ابتداء من وول ستريت جورنال، مرورًا بفوربس وذي هيل، وصولا إلى ديلي كوس وماذر جونز.. وكلها تعمل في منظومة إعلامية تراقب فيها وسائل الإعلام بعضها البعض وتكشف عن أخطاء بعضها البعض". ويسمي بنكلر هذه الظاهرة "بعلاقات التحقق من المصداقية".

أما المنظومة الأخرى فتمثل طيف اليمين المعتدل إلى اليمين المتطرف، ابتداء من شبكة فوكس الإخبارية، مرورا ببريت بارت (Breitbart)، وصولا إلى إنفو وورز (Infowars). ويقول بنكلر الذي شارك في تأليف كتاب "بروباغندا الشبكة.. التلاعب والتضليل والتطرف في السياسة الأميركية" الصادر عن مطبعة جامعة أكسفورد في سبتمبر/أيلول 2018، إن "هذه المنظومة أكثر انعزالا وأضيق أفقا عن بقية عالم الصحافة، وليس هناك رديف حقيقي لها في اليسار".

وجد بنكلر هو وزملاؤه المؤلفون أن هذه المنظومة تعمل حرة من قيود بقية المشهد الإعلامي، "في دائرة مفرغة من المراجعة والتعليقات الدعائية". فما دام التقرير متوافقا مع الهوية الحزبية، تجري مشاركته ونشره،

المحررة التنفيذية لمجلة «تين فوغ» سامهيتا موكهوبادهياي تتحدث إلى فيليب بيكاردي، مدير المحتوى في موقع «بامبل» (تصوير: فيفيان كيليا - بامبل - غيتي).

دون اعتبار لصدقه أو زيفه، على حد قول بنكلر. وتتولد عن هذه المنظومة معايير مزدوجة تتلاشى بسببها التقارير ذات التوجه اليساري عليها وتختفي، بينما تنشر التقارير اليمينية وتذاع باستمرار.

وفقاً لهذا التحليل، يمكن اعتبار أن وسائل الإعلام اليمينية المتطرفة تقوم بنشاط سياسي، وذلك بترويجها وجهات نظرها بغض النظر عن الحقائق. أما وسائل الإعلام في الوسط واليسار فتنخرط في عقد مقارنات وثنائيات لا معنى لها، كطريقة لتفادي وصفها بأنها "ناشطة" من قبل اليمين.

ينصح بنكلر هؤلاء الصحفيين بألا يشغلوا بالهم بمحاولة إرضاء اليمين عبر عرض وجهتيْ نظر في بعض القضايا التي يكون أحد طرفيها خاطئا خطأ بيِّنًا.. "يجب على الصحافة المهنية أن تغيّر من الطريقة التي تمارس بها الموضوعية.. يجب عليها أن تتحول عن الموضوعية بوصفها حيادا، إلى الموضوعية بوصفها سعيا إلى الحقيقة.. هكذا يصير بإمكانها تجنب الضياع في المقارنات الزائفة. ففي نظام تسود فيه

تقف الصحفية جيني مونيه على مشارف معسكر خط الأنابيب في داكوتا، بعد أن ألقي القبض عليها بعد تغطيتها احتجاجاً على الخط (تصوير: تيراي سيلفستر).

البروباغندا، أن تكون حياديًا يعني أن تكون ضالعاً في هذه البروباغندا".

لعله لا توجد منصة إعلامية تمثل رفض سياسية عرض الناحيتين (من ناحية/ من الناحية الأخرى) أكثر من مجلة "تين فوغ" (Teen Vogue) التي تحولت خلال الثلاثين شهرا الماضية أكثر فأكثر إلى منصة للنشاط السياسي، وتبنّت الدفاع عن قضايا مهمّة، وكانت صوت السكان الأصليين في مظاهرات خط أنابيب داكوتا في محمية ستاندينغ روك، ووقفت مع حراك الحقوق المدنية للسود وحركة "مي تو"، واحتجاجات "مسيرة من أجل حياتنا" المطالبة بتشديد القوانين المتعلقة بحيازة السلاح.

تقول رئيسة تحرير المجلة ساميتا موخوباداي "إننا نعرض وجهة نظرنا عبر اختياراتنا التحريرية، والمواضيع التي نغطيها.. ليست تين فوغ وحدها.. أعتقد أن هناك الكثير من المنصات التي تخدم الجمهور الشاب، ومعظمها تحول إلى خط أكثر تركيزا على قضايا العدالة الاجتماعية". شملت تغطية "تين فوغ" السياسية مؤخراً مواضيع عن المظاهرات التي انتشرت في عشرات المدن ضد سياسة ترامب في فصل أطفال المهاجرين عن أهاليهم عند الحدود. ومقالة أخرى عرضت قصة مراهقين في "فلينت متشيغان" نشؤوا في منازل ليس بها مياه نظيفة منذ الكشف عن أزمة تلوث المياه عام 2014. والقضية الأهم التي تغطيها المجلة هي النشطاء الشباب في قضية ضبط حيازة الأسلحة، وقد نشرت تقريرا عن المشاركين في الاعتصام عند مكاتب الكونغرس، وعرضت قصة مراهقة ترشحت لمجلس مدرستها المحلية بعد تهديدها

بالفصل لمشاركتها في مظاهرات تدعو إلى تشديد القوانين المتعلقة بحيازة الأسلحة، وتغطية مستمرة لآخر جهود المراهقين النشطاء في "بارك لاند" المناهضين لحيازة السلاح.

تلاحظ موخوباداي تغيرا في الطريقة التي ينظر بها جيل الألفية والجيل الذي تلاه إلى دورهم في الصحافة، وتقول "حين بدأت العمل قبل عشر سنوات، لم أكن أحلم بالسماح لمراسل بالمشاركة في مظاهرة، لكن الأمر مختلف الآن.. أشعر أننا نواجه حراكا يشبه ما كان سائدًا في ستينيات القرن العشرين، حين طُلب من الصحفيين السود تغطية حركة الحقوق المدنية.. لديّ طاقم عمل شاب ومميز، وهذا ما يجعل عملنا مؤثرا جدا".

في تغطية الحراك الاجتماعي، تطلب موخوباداي من مراسليها الإعراض عن المشاركة في المظاهرات التي يغطونها، لكنها لا تفرض حكما قاطعا في الأمر. وتقول "أتوقع منهم أن يقدموا تقريرا، ومن الصعوبة البالغة تقديم تقرير أثناء المشاركة في المظاهرة.. إذا أرادوا التظاهر في أوقاتهم الخاصة فلن أقرر عنهم إن كان عليهم أن يفعلوا ذلك أم لا". وعلى خلاف ذلك، تؤكد إرشادات الإذاعة الوطنية العامة (أن.بي.آر) بخصوص المسيرات على "وجود قيمة صحفية حقيقية في كون المرء مراقبا للأحداث العامة مثل المسيرات والمؤتمرات، حتى لو لم يكن مكلفا بتغطيتها"، ولكنها تقول "إن التلويح بلافتة احتجاجية أو المشاركة في الهتاف ليست أفعالا لائقة للصحفي".

ترى محررة قسم الصحة والسلامة في "تين فوغ" فيرا بابيسوفا التي ساعدت في تغطية مسيرة "من أجل حياتنا"، أن وظيفة المجلة في المقام الأول هي منح صوت للشباب الشغوف بالقضايا المجتمعية والحقوقية. وتقول إن "سرد قصة صحفية ما بمسؤولية يعني إجراء البحث والاستيثاق من المصادر وإتاحة الفرصة للأشخاص الذين أكتب عنهم ليتحدثوا عن أنفسهم، وفي الوقت نفسه أقدم سياقا جيدا وغنيا لنقل أصواتهم وتجاربهم".

منذ عام، سلكت المجلة هذا المنحى خارج غرفة الأخبار أيضا، حيث ركزت فعالية عقدتها باسم "قمة تين فوغ" على السياسة والنشاط السياسي. وعقد مؤتمر في يونيو/حزيران بمدينة نيويورك وضم ناشطة "بارك لاند" إيما غونزالس ومراهقين آخرين يدعون إلى ضبط حيازة السلاح، وكذلك عضوة مجلس مندوبي ولاية فرجينيا دانيكا رويم المتحولة جنسيا، ومغني الراب كومن، والناشط البيئي آل غور نائب الرئيس الأسبق. ورغم لفيف المتحدثين التقدميين هذا، تصر موخوباداي على أن الهدف ليس الترويج لأي حزب أو وجهة نظر سياسية، بل حث المراهقين على الانخراط في النشاط السياسي.

لكن حين تتخذ منصات النشر موقفا في قضايا معينة، يزداد الجدل في تحديد ما يفصل بين العمل المعتمد على المعلومات وبين المناصرة والنشاط السياسي.

في العام 2015، نشر موقع "باز فيد" (BuzzFeed) إرشادات أخلاقية جديدة ورد في نصها: "إننا نؤمن إيمانا راسخا بأن عددا من القضايا مثل الحقوق المدنية وحقوق النساء ومعاداة العنصرية وحقوق المثليين، لا تحتمل أكثر من وجه". بالنسبة لرئيس التحرير بن سميث، هذه ليست عبارة مثيرة للجدل "فمن الصعب أن تجد وكالة إعلامية تقول إن هناك وجهتي نظر فيما يخص التمييز العنصري، ولا أعتقد أن مسألة تمتع المواطنين المثليين بحقوق مساوية، نقطة خلافية".

لكن بحسب سميث، هناك خط فاصل بين التعبير عن وجهة نظرك والدفاع عن مواقف حزبية. تفرض منصة النشر سياسة تحرم على أفراد طاقمها المشاركة في التجمعات السياسية أو نشر آراء سياسية حزبية على مواقع التواصل الاجتماعي. ويقول إن "هذا ليس علما دقيقا، لكن إن كانت تغريداتي ستصعب على زملائي تغطية شيء ما لأنه سيبدو حينها أنني أسخر منهم، فلا يجب عليّ فعل ذلك". هذا موقع تكتيكي أكثر منه أخلاقي بالنسبة لسميث الذي يقول "لا أعتقد أنه من غير الأخلاقي المشاركة في

مسيرة.. أعتقد أنه قد يؤثر على طريقة عملك". هذا حبل رفيع فعلا قد يصعب إدراكه والسير عليه دوما.

في العام 2016، أثار موقع "باز فيد" جدلا بمهاجمته مضيفيْ برنامج "فيكسر يوبر" (Fixer Upper) التلفزيوني على قناة "إتش.جي.تي.في" (HGTV)، وذلك لعضويتهما في كنيسة معادية للشواذ جنسيا. وشعر كثير من المحافظين بأن الموقع تجاوز خطا أحمر، إذ يرى المسيحيون أن الأشخاص الذين يعارضون زواج الشواذ أو حقوق مجتمع "أل.جي.تي.بي" (LGTB) يتعرضون للاضطهاد من قبل وسائل الإعلام. وسرعان ما نشر قس لوثري مقالة في موقع "الفدرالي" (The Federalist) بعنوان "بازفيد يريد تدمير سمعة تشيب وجوانا جينس (مقدميْ البرنامج) لأنهما مسيحيان ومحبوبان".

منع الصحفيين من التعبير عن آرائهم السياسية لا يلقى قبولا لدى الصحفيين الذين يشعرون بأن حقوقهم وهويتهم مهددة. في أعقاب تنصيب ترامب رئيسا للولايات المتحدة، كتب مراسل "ماركت بلاس" (Marketplace) لويس والس على مدونته الشخصية مقالا بعنوان "ماتت الموضوعية، ولا مشكلة لديّ في ذلك"، قال فيه "تناولت وسائل الإعلام أخيرًا قصص المتحولين جنسيا، لكن النقاش يدور حول السماح لهم بالعيش والمشاركة في المجتمع واستخدام المنشآت العامة وعدم التعرض للتحرش والطرد وحتى القتل، من عدمه. من الواضح أنني لا أستطيع أن أكون محايدا أو وسطيا في نقاش حول إنسانيتي نفسها".

ردًا على ذلك، أقدمت شركة "أميركان بابليك ميديا" -الشركة الأم "لماركت بلاس"- على طرد والاس، قائلة إن منشوره يتعارض مع سياستها التي تطلب من المراسلين "عدم الإفصاح عن قناعاتهم السياسية" لتجنب "خلق تصور بالانحياز السياسي". وحينها قالت ديبورا كلارك نائبة رئيس "ماركت بلاس" ومديرتها العامة في تصريح "حين أتحدث عن عدم المشاركة في رؤية أي طرف، لا يعني هذا أننا نقدم صحافة متحيزة أو مناصرة لطرف ما.. إننا نقدم تقارير مستقلة وموضوعية تطرح وجهات نظر متوازنة عن الأخبار التي نغطيها".

يقول والاس إن مشرفيه في شركة "أميركان بابليك ميديا" هم من شجعوه في الحقيقة على أن يكون أكثر تعبيرًا عن شخصيته، وعدم التردد في الحديث عن قناعاته في منشوراته على مواقع التواصل الاجتماعي. وأشار آخرون إلى أن الشركة لم تجد مشكلة -على ما يبدو- في التغريدات التي نشرها الإعلامي كاي ريسدال والتي انتقد فيها صراحة الرئيس ترامب على صفحته الشخصية على تويتر. قال والاس الذي يعمل اليوم محررا للأخبار في مجلة "سكالاواغ" (Scalawag) "أحببت عملي.. أعتقد أن ماركت بلاس فوتت الفرصة لتكون رائدة في هذا النقاش.. دائما أمرّ بمواقف لا يعتبرني الناس فيها محايدًا، بنفس الطريقة التي يمكن لصحفي ذي بشرة ملونة أن يكون محايدًا في تغطيته لمؤتمر للمتطرفين البيض".

يقول والاس إن "سكالاواغ" لا تمنع الصحفيين من التعبير عن رؤاهم الشخصية في القضايا أو تغطية القضايا التي تؤثر فيهم شخصيا. في كل الأحوال، هو لا يرى في ذلك نشاطا سياسيا بنفس طريقة المجموعات التي تنتظم حول قضية ما. "هناك ما يسمى تعارض المصالح، وأنا واع لهذا الأمر.. نحن نفحص الحقائق ونحرص على أن تضم المقالة أكبر عدد ممكن من وجهات النظر، لكننا لا نقول للصحفي: لديك رأي واضح حيال هذه القضية، لذا لا تقم بتغطيتها". في مقالة تتحدث عن متحولين جنسيا يساعدون بعضهم البعض للحصول على الرعاية الصحية، يروي والاس قصة نشطاء في ولايتي تينيسي وكنتاكي يقدمون خدمة مجانية لتوجيه المتحولين جنسيا إلى أطباء وعيادات صحية تراعي وضعهم وظروفهم.

تقدم المقالة وجهة نظر إيجابية عن النشطاء، وتعرض نقدا لاذعا "للبيئة الثقافية والتشريعية العدائية" التي خلقت حالة من الإقصاء والتمييز ضد المتحولين جنسيا

الذين يسعون للحصول على رعاية صحية. لكنها لا تعرض وجهة نظر طبيب قد يمتنع عن تقديم الخدمة الصحية لهذا المتحول لأسباب دينية. أما بالنسبة للمشاركة في مظاهرات ضد "قوانين الحمامات" المعادية للمتحولين، يقول والاس "لا أقول إني بوصفي صحفيا ليس بوسعي تغطية قوانين الحمامات العامة المعادية للمتحولين والتظاهر ضدها، لكني أريد التركيز على عرض القصة بشكل صحيح، ومحاولةُ المشاركة في الوقت نفسه قد تكون مشتِّتة للذهن".

يكتب والاس حاليا كتابا عن تاريخ الموضوعية في الصحافة، يتقصى فيه بداية ظهور المصطلح أوائل القرن العشرين مع ظهور المدارس الصحفية وأدلة السلوك المهني والأخلاقي. في ذلك الوقت، كان بعض الأميركيين يعانون من القلق بشأن تدفق المهاجرين إلى المدن، وحق النساء في التصويت. يقول "كان كثير من المجموعات السكانية المتنوعة أكثر بروزًا في المجتمع".
يرى والاس أن الرابط بين هاتين الظاهرتين لم يؤطر فقط معنى الموضوعية، بل أيضا هوية الشخص الذي بإمكانه أن يكون موضوعيًا، أي الشخص الذي بإمكانه نقل الرؤية الذكورية البيضاء عن العالم. "لكن ما إن تحولت الموضوعية إلى إطار عمل، حتى أصبحت كذلك وسيلة لإبعاد الصحفيين الذين تتعارض مصالحهم مع مُلاك الصحف".

لم يكن طرد والاس حادثة معزولة، ففي مارس/آذار 2018 طردت جامعة تينيسي في "تشاتانوغا" مراسلة متحولة جنسيا في إذاعة "WUTC" المملوكة للجامعة والتابعة للإذاعة الوطنية العامة. كانت المراسلة تغطي قضية قانون الحمامات المعادي للمتحولين جنسيا في ولاية تينيسي، وطُردت بعد تهديد مسؤولين بوقف التمويل عن المحطة، قائلين إنها لم تعرّف بنفسها كمراسلة. دافعت الشركة المالكة للإذاعة عن المراسلة التي كانت ترتدي شارة الصحافة وتحمل أجهزة تسجيل واضحة للعيان، واتهمت الجامعة بالخضوع للضغوط السياسية. ووافقت الجامعة على دفع تعويض للمراسلة بمبلغ 50 ألف دولار لتسوية دعوى قضائية رفعتها ضد الجامعة بسبب طردها.

وفي ربيع العام 2018 كذلك، ترك ديسموند كول -الكاتب الذي تناول قضايا تحرش الشرطة بالأميركيين من أصول أفريقية- صحيفة "تورونتو ستار"، بعد توبيخه بسبب التعبير عن سخطه بوضوح في جلسة استماع بمجلس الشرطة.

لسنوات طويلة، عارض كول أسلوب "التمشيط" (Carding) حيث يوقف رجال الشرطة السود عشوائيا في الشارع ويطالبونهم بأوراق الهوية ويستجوبونهم دون سبب وجيه. في العام 2015، كتب كول مقالة في "تورونتو لايف" يدعي فيها أنه تعرض للتمشيط أكثر من 50 مرة في شوارع المدينة. لم تكن صحيفة "تورونتو ستار" التي وظفت كول بسبب آرائه في قضايا العنصرية، مرتاحة دائما لنشاطه الصحفي والقضايا التي يتناولها. وبحسبه، فقد اقترح عليه ناشر الصحيفة جون هوندريش تقليل انشغاله بالقضايا العنصرية وتنويع مواضيعه، لكن هوندريش ينكر ذلك ويقول إنه اقترح على كول فقط عدم الكتابة كثيرا عن التمشيط.

في أبريل/نيسان 2017، رفع كول يده في اجتماع لمجلس الشرطة بتحية "القوة السوداء"، ورفض مغادرة المنصة حتى توافق الشرطة على حذف المعلومات التي جمعتها عبر التمشيط. وردا على ذلك، عاتبته الصحيفة سرًا وقالت له إنه ليس بوسعه أن يكون ناشطا وكاتبا صحفيا في الوقت ذاته.

شرحت المحررة العامة في الصحيفة كاثي إنغلش هذا الأمر في مقالة قالت فيها إنه ليس لدى الصحيفة أدنى مشكلة في اتخاذ كاتب الرأي مواقف عامة في القضايا العامة. "لكن حين أصبح كول نفسه خبرًا صحفيا، وحين نقل نشاطه إلى مستوى أعلى (يتجاوز المتوقع) أصبح الأمر مثيراً للقلق". وقالت إن الصحيفة قضت سنوات في نقل أخبار التمشيط، وأنفقت الكثير على طلبات السجلات

العامة التي تظهر أن السود يتعرضون للإيقاف من قبل شرطة تورونتو أكثر من البيض بثلاث مرات، لكن مظاهرة كول في جلسة استماع المجلس ألقت بظلال من الشك على قدرة الصحيفة على تغطية القضية باتزان.

كول الذي رفض طلبين لإجراء مقابلة معه من أجل هذه المقالة، قرر ترك الصحيفة على أن يتم تقييد نشاطه، وكتب في مدونته الشخصية "إذا كان عليّ الاختيار بين عمود صحفي والأفعال التي يتوجب عليّ القيام بها لتحرير نفسي ومجتمعي، سأختار أن أنخرط في خدمة قضية تحرير السود".

صعّد كول من حربه ضد التمشيط على المستوى الوطني بحملات ضد توقيف السكان الأصليين في ألبرتا، واستمرّ في الترويج لمواقفه في البرنامج الإذاعي الذي يستضيفه، وتراوده فكرة الترشح لمنصب عمدة تورونتو. أثارت الحادثة نقاشا محتدمًا بين مجتمع الصحفيين في تورونتو، فقد أيد بعضهم قرار الصحيفة بينما وصفها آخرون بازدواجية المعايير، خصوصا أنها استمرت في النشر لنشطاء مشاهير مثل المناضلة لأجل حقوق النساء ميشيل لاندسبيرغ، والناشطة المناهضة للعولمة نعومي كلاين.

لاندسبيرغ نفسها انتقدت الصحيفة في تعاملها مع القضية، وقالت إنها دعمت نشاطها في قضايا النسوية والفقر لمدة 25 عاما عبر منحها الفرصة لتكون كاتبة رأي فيها، ونشر عريضة تطالب بمنع إغلاق مركز لرعاية الأطفال، وتصوير إعلان يصورها وهي تقدم العريضة لرئيس الوزراء الكندي. وكتبت في مجلة "ناو" الأسبوعية تقول "هل العرق أقل أهمية من الفقر أو التمييز الجنسي؟ لن يتجاهل القراء السود حقيقة طرد واحد منهم بسبب نشاطه دفاعا عنهم".

مشكلة الخط الفاصل بين الصحافة والنشاط السياسي لا تخص اليسار وحده، فقبل عدة أشهر قررت صحيفة "ساراسوتا هيرالد تريبيون" (Sarasota Herald-Tribune) تعيين لي وليامز محررًا بعد أن كان كاتب رأي فيها، وتتعلق مسؤوليته الجديدة بتحديد مواضيع الأخبار العاجلة وتحرير مقالات الرأي. وبالإضافة إلى دوره ككاتب رأي في الصحيفة، يدافع لي عن حقوق حمل السلاح، ويدير مدونة للصحيفة تسمى "ذي غون رايتر" (The Gun writer) ومدونة صوتية تسمى "فكّر، سدّد، أطلق". في مدونته يغطي متعاطفًا تجمعات المطالبين بترسيخ الحق في حمل السلاح، وينتقد شركات مثل "ديكس سبورتينغ غوودز" التي أوقفت بيع الأسلحة الهجومية، ورفعت سن مشتري الأسلحة بعد عملية إطلاق النار في مدرسة "بارك لاند". في إحدى حلقات مدونته الصوتية بعد هذه الحادثة بأسبوعين، سخر وليامز وضيفه من إجراءات ضبط حيازة الأسلحة، ودعوَا إلى تسليح الأساتذة لجعل المدارس أكثر أمنا.

تباينت ردود الأفعال داخل غرفة الأخبار في صحيفة "ساراسوتا" على قرار تعيين وليامز، فاستقال أحد كتاب الرأي سريعا بعد هذا القرار، لكن رئيس التحرير ماثيو ساور دافع عن هذا التعيين في صحيفة "بوينتر" وكتب عن وليامز في أبريل/نيسان قائلاً "نشجع الناس على أن يكونوا شغوفين تجاه مواضيع معينة ويهتموا بها، لكني لست قلقا من تأثير ذلك على رأيه بخصوص قضايا معينة، لأنه مهني محترف".

وبالفعل، لم تُظهر تغطية الصحيفة لقضية الأسلحة أي تحيز واضح. وشملت الأخبار العاجلة التي عرضتها مؤخرا، مقالات تغطي حادثة إطلاق النار بمدرسة في سانتافي بولاية تكساس، واستمرار دعوات طلاب "بارك لاند" إلى مزيد من قوانين ضبط حيازة الأسلحة، وجهود نواب ديمقراطيين وجمهوريين في المجلس التشريعي بفلوريدا لتمرير قانون جديد لأمن وسلامة المدارس.

وفي العام 1989، تعرضت مراسلة صحيفة "نيويورك تايمز" ليندا غرينهاوس لنقد لاذع بسبب مشاركتها في مسيرة داعية إلى حقوق الإجهاض، بينما كانت تغطي أخبار المحكمة العليا للصحيفة.

في كتابها الصادر عام 2017 بعنوان "مجرد صحفي.. عن الصحافة والحياة وما بينهما"، تصف غرينهاوس نفسها بأنها "ناشطة بالصدفة"، وتفرق بين حضور فعالية باعتبارها ناشطة أو مواطنة متفاعلة. وتقول إن "مسيرة الإجهاض كانت حدثا شارك فيه نصف مليون شخص.. هل كنت لأسير تحت لافتة تقول: مراسلو نيويورك تايمز يدعمون الحق بالإجهاض؟ لا، لم أكن لأفعل ذلك، فقد ذهبت هناك بصفة شخصية".

وبينما تحولت هذه الحالة إلى دراسة كلاسيكية في تعارض المصالح، تقول غرينهاوس إن زملاءها كانوا على علم بذهابها في ذلك الوقت. وتحولت مشاركتها سريعا إلى مشكلة، ونشرت "نيويورك تايمز" حينها مقالا تقول فيه إن غرينهاوس خرقت سياستها بشأن تعارض المصالح. واحتدم الجدل بشأنها مجددا عام 2006 بعد إلقاء غرينهاوس كلمة في معهد "رادكليف" تنتقد فيه سياسات الرئيس جورج بوش الابن بشأن حقوق الإنجاب.

في تلك المناسبة، طرح النقاد مجددا مشاركتها في المسيرة، والآن بعد 25 عاما؟؟؟، باعتبارها شيئا يمنعها من أن تكون موضوعية. تقول غرينهاوس "حلت بالصحافة السائدة حالة من الطهرانية بأثر رجعي، وهو ما أدهشني كثيراً"، وأضافت أن المفارقة تكمن في أنه حتى ذلك الوقت لم يشكك أحد في جودة عملها. "ما الذي حدث لمحاسبة الصحفيين بناء على جودة ونزاهة عملهم، بدلا من محاكمة ما في قلوبهم وعقولهم؟ إذا لم نكن مهنيين بما يكفي لنفصل آراءنا الشخصية عن منتجنا الإخباري، فربما لا نصلح لإعداد المواد الإخبارية في المقام الأول".

مؤخرًا، أبدت صحفيات انزعاجهن من تعليمات غرف الأخبار التي منعتهن من المشاركة في مسيرة النساء بواشنطن المقامة في اليوم التالي لتولي ترامب رئاسة البلاد في يناير/كانون الثاني 2017. لم تلق هذه القيود صدى حسنا لدى الصحفيات اللواتي ناقشن رغبتهن في حضور الفعالية في مجموعات خاصة على فيسبوك، بحسب المراسلة السابقة لدى "أسوشيتد برس" شايا طايف مهاجر التي تدرس الصحافة حاليا في جامعة جنوب كاليفورنيا.

تقول شايا "علينا أن نقر أن النساء لم يتمتعن بالمساواة الكاملة في أميركا ولا في أي مجتمع آخر"، وكتبت مقالا لصحيفة كولومبيا جورناليزم ريفيو بعنوان "لماذا يجب أن يسمح للصحفيين بالمشاركة في مسيرة النساء". تقول إن طريقة تسيير الأمور في عالم الصحافة ذكورية للغاية وبيضاء وتحد من أفاق الناس الذين ربما لم يضطروا يوماً للتظاهر من أجل حقوقهم.

اتبعت شايا التعليمات بعدم المشاركة أثناء عملها في أسوشيتد برس، لكنها أشارت في مقالتها في مجلة "كولومبيا جورناليزم ريفيو" إلى التناقضات التي ورثتها الصحفيات وكذا الصحفيون من ذوي البشرة الملونة في هذه المهنة، وكتبت تقول "لقد قيل لنا أن نقول الحقيقة للسلطة، وأن نكشف عن أوجه اللامساواة والظلم، ونرفع أصوات المهمشين والفقراء. لكن طُلب منهم أيضا أن يظلوا صامتين حين يشعرون بأن حقوقهم وحقوق المهمشين الآخرين معرضة للانتهاك".

وأكّدت أن هذا الإسكات ربما يكون السبب في عدم تمتع الصحافة بمزيد من التنوع رغم الجهود التي استمرت عقودا. "هناك حواجز تعيق دخول عالم الصحافة، خصوصا للأجيال الجديدة الرافضة لإخفاء هويتها كما يُطلب منها.. ليس من الأمانة أن نتظاهر بأننا لسنا ما نحن عليه".

شاركت شايا في المسيرة النسائية حاملة لافتة تحث النساء حول العالم على الوحدة. وبوصفها إيرانية أميركية، شاركت أيضا في مظاهرات بمطار لوس أنجلوس الدولي احتجاجا على فرض إدارة ترامب حظرا على سفر مواطني الدول الإسلامية. تقول "لا أتحدث إلى الإعلام حين أذهب.. لا أحمل لافتات سياسية أو لافتات لمجموعات معينة، لكني لا أرى سببا للتوقف عن الدعوة إلى المساواة".

ولا يعني انتماء صحفي ما إلى مجموعة مهمشة، أنه منجذب بالضرورة إلى المشاركة في الاحتجاجات المطالبة

بحقوقها. فقد بدأت الصحفية الحرة جيني مونيه التي تنتمي إلى قبيلة "لاغونا بويبلو" من السكان الأصليين، تغطية الاحتجاجات ضد خط أنابيب داكوتا في ستاندينغ روك في الوقت الذي جذب فيه هذا الخط تغطية إعلامية واسعة.. فصلت نفسها عن النشطاء المقيمين في المعسكر، وقضت لياليها في النزل أو في سيارتها.

في مقال مونيه الأول لمجلة "يس!" (Yes!)، أجرت مقابلات مع سكان بيض ومحافظين في داكوتا الشمالية عن عدم ارتياحهم للغرباء الذين يأتون إلى البلدة ليثيروا الاضطراب. واستقصت كيفية تغيير مسار خط الأنابيب من مساره الأصلي قرب بسمارك إلى محمية "ستاندينغ روك سيكس ترايب"، ومنشورات مفصلة متعصبة لمسؤولين محليين على فيسبوك. تقول مونيه "إذا كنت سأستخدم كلمة عنصرية، عليّ أن أكون مستعدة عند كل منعطف لشرح سبب كونها عنصرية. وبوصفي كاتبة ملونة البشرة من المهمشين، لا يسعني أن أكون ناشطة".

وتضيف أن على الكتاب المنتمين إلى مجموعات مهمشة السير على حبل رفيع، بسبب رغبة وسائل الإعلام نفسها في نشر قصص مثيرة عن الصراع والظلم، بدلا من موضوعات دقيقة ومفصلة عن محمية السكان الأصليين. فوسائل الإعلام السائدة تحب العناوين النارية التي تجذب القراء عبر تصدير المظالم "حتى يصبح الكتاب المنتمون إلى السكان الأصليين مجبرين على السير داخل هذه الحدود"، وهو ما يضعهم في أحيان كثيرة في صورة الصحفي المناصر. لم تجد مونيه اهتماما كبيرا في الإعلام بشأن القصص الأكثر تعقيدا عن السياسة داخل القبيلة وخارجها، وكتبت في مقالات نشرتها في قسم "ريفيل" (Reveal) بمركز الصحافة الاستقصائية وفي مجلة "يس!"، عن الكيفية التي علقت بها القبائل في حرب بين الولاية والسلطات الفدرالية حول السيطرة على المحمية، وأوردت الخلافات بين قادة السكان الأصليين حول استمرار المظاهرات ضد خط الأنابيب، وإن كان ذلك هو الحل الأفضل للمحمية.

تقول مونيه إن كونها كاتبة من السكان الأصليين يمنحها فرصة للاطلاع على نقاشات داخل مجتمع السكان الأصليين قد لا تتاح للكتاب من خارج هذا المجتمع، مما يسمح لها بفهم الفروق في المجتمع بدلا من النظر إليه نظرة أحادية. وتضيف "مع ذلك، يسود افتراض بأن المقالات التي ينشرها كتاب من السكان الأصليين لا يمكنها أن تكون موضوعية".

حين حدثت حملة اعتقالات عشوائية استهدفت النشطاء في "ستاندينغ روك"، اعتقلت مونيه معهم. وبوصفها صحفية غطت المؤتمرات الصحفية بانتظام، توقعت أن يفرج عنها فور وصولها إلى الحجز، لكنها احتجزت مدة 30 ساعة وتعرضت للتفتيش وحرمت من حقها في إجراء مكالمة هاتفية. ورغم أنها أخبرت مسؤولي السجن مرارا وتكرارا بأنها صحفية، فإنها تعرضت لإهانات عنصرية من قبل مأمور السجن الذي نعت النساء "بالمتوحشات". كتبت عن هذه التجربة أيضا، مقدمة دليلا حيًا على نوع المعاملة العنصرية التي يلقاها المتظاهرون من السكان الأصليين.

تجربة ما يمر به النشطاء عن قرب، قد تؤدي إلى تغطية أعمق وأكثر تعاطفًا، حتى بالنسبة لصحفيين ليسوا من المجموعات المهمشة. لكنها تثير أيضا أسئلة حول الحفاظ على مسافة مناسبة من الأحداث لتغطيتها بشكل موضوعي.

هذا ما حدث في مظاهرات "حياة السود مهمة" في فيرغسون عام 2014، وفقا لأستاذ علم الاجتماع بجامعة "سانت لورانس" ستيفن برنارد الذي حلل استخدام تويتر من قبل النشطاء والصحفيين خلال الأحداث. يقول برنارد إنه في خضم الفوضى التي تسود المظاهرات التي جنحت إلى العنف أحيانًا، يختفي الخط الفاصل بين الصحفيين والنشطاء، فيكون المواطنون الصحفيون -أو الصحفيون النشطاء كما يسميهم- أول من ينشر الأخبار العاجلة على وسائل التواصل الاجتماعي ويلحقهم الصحفيون المحترفون. الأمر الأكثر إثارة هو الكيفية

التي اختلفت بها تغطية الصحفيين الموجودين في المظاهرات من داخلها، مثل ويزلي لوري من "واشنطن بوست"، أو مات بيرس من "لوس أنجلوس تايمز"، أو راين رايلي من "هافنغتون بوست"، عن تغطية الصحفيين الأبعد عن المظاهرات. وما إن حاولت الشرطة السيطرة على الحشد بالقنابل المدمعة والرصاص المطاطي، حتى جاءت تغريدات الصحفيين المندمجين في الحشد أكثر عاطفية وتعاطفا في نبرتها.

يقول برنارد إن "هؤلاء الصحفيين الذين بدؤوا العمل في الميدان مع النشطاء ومشاركتهم هذه التجارب المشحونة بالمشاعر، أصبحت تغريداتهم من نواح عديدة متماهية مع تغريدات النشطاء". في فورة المظاهرات، كتب صحفي قائلا إن "الشرطة تطلق الغاز المدمع باتجاه الصحفيين الآن، وتسلط إنارة الكشافات عليهم حتى لا تستطيع كاميراتهم تسجيل ما يحدث". في اليوم التالي، نشر صحفي تصريحا بالتعاطف مع النشطاء ونقدا مبطنا للشرطة، قال فيه "لم يكن الأمر كله سيئا الليلة.. عقدت صداقة مع مجموعة من الأشخاص الذين لم يهددوني بالهراوات والغاز المدمع".

لا يعني هذا أن هؤلاء الصحفيين لم ينقلوا الحقيقة، لكنهم كانوا أقرب إلى حقائق مختلفة عن الصحفيين في الجانب الآخر من خط الشرطة الذين استقوا الأخبار من المسؤولين في المؤتمرات الصحفية. يقول برنارد "كان بإمكانهم رؤية تجييش قوات الشرطة والطريقة التي انتشرت بها هذه القوات ضد مظاهرات سلمية.. حقيقة استهداف الصحفيين بالغاز المدمع واحتجازهم وتقييدهم عن أداء واجبهم، كانت مستفزة بالنسبة لهم.. هذا تجاوز للحد ولن ندافع عنه".

يوسع برنارد تحليله هذا في كتابه "مواطنون عند البوابات.. تويتر والجمهور الشبكي وتحولات الصحافة الأميركية"، ويتناول تغطية الصحفيين لدونالد ترامب بعد فوزه في الانتخابات.

إجمالا، وجد برنارد أن استجابة الصحفيين كانت أكثر تحفظا من الجمهور العام، فالصحفيون لم يكونوا ينقلون تصريحات ترامب المجردة، بل أضافوا إليها تعليقات وسياقات وفحصوا الحقائق الواردة فيها، وفي بعض الأحيان فعلوا ذلك بشيء من الحدة، كأن يقولوا مثلا "هذا الأمر خارج عن السياق بطريقة سخيفة"، أو "يظهر هذا ببساطة أن ترامب لا يفهم الحكم". يقول برنارد "لقد استخدموا تويتر لتصحيح المعلومات" ولو بطريقة مسلية ومتفاعلة.

أما من يقفون على الجانب الآخر من خط الانقسام السياسي، فإن هذه التغريدات قد تمثل موقفًا سياسيا حزبيا، وهي -كما يقول برنارد- "تخفي الخط الفاصل بين النشاط السياسي وصحافة الخصومة التقليدية".

الخطوط الفاصلة بين الدقة الصحفية والنشاط السياسي وبين مناصرة القضايا والخصومة، تتغير بناء على مكانك من خط الانقسامات السياسية، أو موقعك من صف رجال الشرطة. لكن الصحافة تتطلب "مجموعة من المهارات التي تمكن الصحفي من التعرف على وجهات نظر الآخرين وتمنحه القدرة على سماع قصصهم"، على حد قول موخوباداي من "تين فوغ". ويتضمن هذا الانفتاح ضرورة سماع رواية أفراد الشرطة عند الكتابة عن المظاهرات، أو سماع قصة المتهم بالاغتصاب عند الكتابة عن واقعة اعتداء جنسي، وهذا أمر لن يكترث بالقيام به معظم الناشطين. تقول موخوباداي "ما أريد معرفته أكثر من أي شيء آخر، هو مدى فضولك.. نعرف جميعا أنه ليس ثمة قصة صحفية لا تحتمل الجدل بشأنها، ولو تركت موقفك يتحكّم في عملك، أيًا كان موقفك، فعليك أن تدرك أنك لا تقدم صحافة حقيقية".

ينشر المقال بالتعاون مع مجلة «نيمان ريبورتس»، جامعة هارفارد.

كيف أصبحت الصحافة تحت رحمة الشبكات الاجتماعية؟

المقال الفائز بجائزة أفضل مقال لمجلة الصحافة

إسماعيل عزام

وسائل التواصل الاجتماعي أحكمت قبضتها على الصحافة. ولا شيء قادر اليوم على الحد من تأثيرها على المحتوى الإخباري ولا على النموذج الاقتصادي للمؤسسات الإعلامية.

أنت تنتج محتوى رقميًا في مؤسسة إعلامية.. لنقل إنك تعدّ قصص فيديو قصيرة تُنشر على فيسبوك وتويتر وإنستغرام. كغيرها من أيام العمل، أتيتَ صباحًا ووضعتَ تصوّرًا للقصة، وبحثتَ عن الصور والمقاطع التي يمكنك استخدامها. نسقتَ مع المشرفين عليك ومع محرّر الفيديو، وتخيلتَ مسبقًا أن هذه القصة ستحقق مليون مشاهدة في أقل من أسبوع.

فجأة، يرد خبر على علاقة بفيسبوك.. في البداية لا تعيرُ الأمر اهتمامًا، فقد يكون تحديثا عن اكتشاف ثغرة جديدة في الموقع، أو عن تداعيات فضائح استخدام المعطيات الشخصية للمستخدمين. لكنك ما إن تعلم بتفاصيل الخبر حتى تصاب بالصدمة: إدارة فيسبوك قرّرت توقيف المنصة عن العمل! وأعلنت لكل مستخدمي الموقع من أفراد وشركات ومنظمات.. أن آخر أجل لهم لتجميع بياناتهم من المنصة سينتهي بعد ثلاثة أشهر!

> **العلاقة بينهما براغماتية. الصحافة تحتاج لمنصات جماهيرية ووسائل التواصل تحتاج للتحقق من أخبارها.**

قد يبدو هذا السيناريو للبعض موغلا في الخيال، لكنه ليس مستبعدًا كثيرًا في عالم الإنترنت، فهناك منصات رقمية حازت شهرة كبيرة ثم اختفت، كبرنامج "المحادثة الفورية" (Windows Live Messenger) عام 2013، بل إنّ غوغل لوحده أوقف عددًا من منتجاته (1). صحيح أن سبب توقف جلّ المنصات الرقمية يعود أساسا إلى تراجع الإقبال عليها أو عدم نجاحها، لكن من يضمن استمرارية الفيسبوك؟ فصحيفة "واشنطن بوست" كتبت عام 2019 أن نية فيسبوك التحولَ إلى فضاء للتواصل قائم على الخصوصية، بدل أن يستمر على التواصل المفتوح، ستؤدي

إلى نهاية عصره (2). وإذا ما تراجعت شعبية فيسبوك، فحينها يمكنك أن تتوقع أيّ شيء.

طبعًا، ليس الغرض من هذا المقال التنبؤ بما سيجري خلال السنوات القادمة، ولو أن التنبؤ بمستقبل الإعلام أمر مطلوب لمعرفة إلى أين نسير. لكنّ الهدف منه طرح أسئلة حول هذا الاعتماد الكبير للمؤسسات الصحفية على مواقع التواصل الاجتماعي، إذ انتقل من مجرّد الاستفادة من المنصات الاجتماعية لجلب الزوار إلى المواقع الإلكترونية، إلى ضرورة أن تنشر هذه الأخيرة محتوًى رقميًّا يُستهلك بشكل كامل خارجَها، أيْ على مواقع التواصل.

وطبعًا لا نتحدث هنا عن يوتيوب الذي بدأ منذ البداية في مجال الفيديو، بل عن فيسبوك وتويتر اللذين لم تكن فيهما لمقاطع الفيديو نصيب واضح من المشاركة، قبل أن يشرعا كذلك في الاعتماد على الفيديو. بل إن فيسبوك أعطى للفيديو أولوية في الانتشار على اليوميات (Timeline) في وقت من الأوقات.

لم تعد الكاتب الوحيد للخبر!

قد تظن أن ظاهرة المواطن الصحفي بدأت خلال عصر الإنترنت، لكن القصة ظهرت منذ زمن بعيد، ومن أبرز الأمثلة التي ساقها المهتمون بالموضوع، الشريط الذي التقطه أبراهام زابرودر من نافذة شركة صغيرة للخياطة كان يديرها، لعملية اغتيال الرئيس الأميركي جون كينيدي يوم 22 نوفمبر/تشرين الثاني 1963 (3)، وباع حقوق الشريط

استعانت الكثير من وسائل الإعلام بشخصيات تحظى بشعبية على وسائل التواصل الاجتماعي (صفحة الدحيح على فيسبوك).

لمجلة "لايف" بمبلغ 150 ألف دولار (4). فوجود زابرودر في المكان الصحيح، وفي التوقيت الصحيح، لم يجعل منه فقط مصدرًا موثوقًا لوسائل الإعلام، بل جعل هذه الأخيرة تعتمد على ما صوّره بكاميرا هاوية بدل معدات مهنية كلّفتها أضعافًا مضاعفة لما كان بحوزة الرجل.

بيدَ أن زابرودر لم يكن بوسعه لو اتفقت كل وسائل الإعلام على رفض نشر صور الفيديو الخاص به، أن يعمّم هذا العمل على العالم أوسع. بمعنى آخر، أنه هو أيضا لم ينجح في الاستقلال عن وسائل الإعلام الجماهيري التي كانت في تلك اللحظة ناجحة في أداء دور "حراس البوابة"، أي أنها تتحكم بما يشاهده الناس عبر العالم أو يقرؤونه أو يسمعونه. لذلك سيكون صعبًا أن نقيس فيديو زابرودر بمقاييس المواطن الصحفي في الإعلام الجديد، إذ لا نتحدث هنا عن مواطنٍ يلتقط الفيديو والصور فحسب، بل عن مواطن بإمكانه أن يضطلع بوظيفة النشر والوصول إلى الجمهور دون الحاجة إلى وسائل الإعلام الجماهيرية التي كثيرًا ما تتحوّل بدورها إلى جزء من الجمهور، ويحدث ذلك عندما تستفيد من هذه الصور والمقاطع لأجل تأكيد أخبار ما، أو حتى لأجل أن تبني منها قصة إخبارية بالكامل.

وبطبيعة الحال، فإن أكبر دفعة تلقاها المواطن الصحفي هي تطوّر الإنترنت من الجيل الأول الذي كان يعتمد على صفحات رقمية جامدة، إلى الجيل الثاني الذي يُعرف بسمة التفاعلية، حيث مكّن المستخدم العادي من المساهمة في بناء المحتوى على منصة رقمية متاحة للجميع (5)، دون الحاجة إلى تعقيدات برمجية كإنشاء موقع إلكتروني مستقل، أو إلى الإذن بالنشر كما تفعله بعض المواقع التي تتيح للمتلقي الإدلاء برأيه. فأنت اليوم كمتلقٍّ، تبني المحتوى في الشبكات الاجتماعية، وتاريخ الإنترنت يشهد بالتالي أنك لم تكن مستهلكًا فقط للمحتوى!

ويمكن القول إن الإنترنت في بداياته، لم يشكّل تحديًا خطيرًا لوسائل الإعلام الرقمية التي كانت تعتمد على مواقعها لجلب الجمهور، فكانت جلّ الزيارات تأتي من رقن نطاق الموقع في المتصفح الرقمي أو في غوغل (خاصة مع صعوبة حفظ أسماء النطاقات). لذلك كانت ظاهرة المواطن الصحفي غير منطوية على خطر كبير بالنسبة للمواقع الإخبارية، التي استحوذت على نفوذ في ترويج فيديوهات المواطنين الصحفيين، لدرجة أن منهم من كانوا يتواصلون مع هذه المواقع الإخبارية لأجل تمكين المقطع الذي صوّره من الانتشار.

وفي هذا الإطار، يمكن الاستشهاد بتجربة موقع "هسبريس" في المغرب، عندما كان يعتمد بشكل كبير، في تبويب "صوت وصورة" على مقاطع صحافة المواطن، خاصة في الفترة ما بين عامي 2007 و2011، قبل أن يشرع في الاعتماد تدريجيًا على مقاطع فيديو من إنتاجه (6). بل إن كبريات القنوات الفضائية اعتمدت على مقاطع صحافة المواطن لتغطية أحداث الربيع العربي، خاصةً عندما منعت السلطات القائمة وسائل الإعلام الدولية والمستقلة من الوصول إلى قلب الحدث.

لكن بزوغ مواقع التواصل الاجتماعي باعتبارها عصب الجيل الثاني من الإنترنت، هو ما خلق التحدي الحقيقي لوسائل الإعلام الرقمي. يقول آلان روسبريدر في كتابه "أخبار عاجلة" (Breaking news) إن "الويب 0٫1" كان يعني "أنا أشاهد"، بينما تحوّل "الويب 0٫2" إلى "أنا أشارك". ويضيف أن "الصحفيين كانوا مرتاحين مع 'أنا أشاهد'.. ولكن 'أنا أشارك' أصبح أمرًا مختلفًا تمامًا. معظم المحرّرين يرغبون أن يكونوا في موضع التحكم، لكن أهم ما جاء مع مواقع التواصل أن لا أحد يستطيع التحكم" (6).

مع ذلك، تعاملت مؤسسات الإعلام الرقمي بكثير من البرغماتية مع وسائل التواصل الاجتماعي لجلب الزوار عبر ترويج الروابط في صفحات وحسابات تحمل اسم المؤسسات المذكورة على المواقع الاجتماعية. وهي ظاهرة لا تزال حاضرة بقوة، فلا يمكنك أن تتصوّر حاليًا، أيّ مؤسسة صحفية تملك حضورًا على الإنترنت، تهمل وجودها في هذه الفضاءات التي أصبحت وسيلة فعالة

روان الضامن المديرة التنفيذية لشبكة «إعلاميون من أجل صحافة عربية استقصائية» (أريج).

للتقدم على سلّم المنصات المتخصصة في ترتيب المواقع مثل "أليكسا".

أنت صحفي؟ لم نعُد نحتاجك!

لم تعد جلّ المؤسسات العمومية بحاجة إليك إن كنت صحفيا مكلفا بنشر البلاغات، إذ يكفيها نشره على حساباتها بمواقع التواصل الاجتماعي، وهكذا يسقط عنك الدور الحصري في نقل المعلومة من المصدر إلى الجمهور كما كان في السابق عندما كانت تبعث البيانات والبلاغات عبر الفاكس أو البريد الإلكتروني، وهو الأمر الذي ينسحب اليوم على الشخصيات العمومية، فبعدما كانت ترى في الصحافة وسيلة مهمة لنقل آرائها إلى الجمهور عبر إجراء حوارات معها، أضحت اليوم قادرة على التواصل مع الرأي العام عبر منصاتها على مواقع التواصل، بل منها من يتوفر على قاعدة رقمية جماهيرية أكبر بكثير من تلك التي تتوفر عليها بعض وسائل الإعلام الراغبة في إجراء حوار معها، فيتحوّل همّ الصحفي هنا إلى محاولة الاستفادة من جمهور الشخصية العمومية لإغناء منصاتها الرقمية.

وكثيرًا ما يسابق الصحفي الزمن لأجل اللحاق بمواقع التواصل في النقاشات التي تدور فيها، وهناك ظاهرة انتشرت مؤخرًا، وهي أن وسائل الإعلام كثيرًا ما تتأثر بنقاشاتها، سواء كانت هامشية أو أساسية، فتجد بعض المؤسسات الإعلامية تنقل شغف مستخدمي مواقع التواصل بالحياة الخاصة للناس، ومنها ما يصبح طرفًا في حملات تضامنية أو تنديدية، حتى لو لم تكن هاته المؤسسة تشاطر رواد مواقع التواصل الرأي في هذه الحملات.

وتشير دراسة لمركز الانتقال الإعلامي في أستراليا حول "تأثير المنصات الرقمية على الأخبار والمحتوى الصحفي"، نقلا عن عدة مصادر، أن اهتمام وسائل الإعلام بالوصول إلى جمهور في مواقع التواصل أدى إلى حدوث تغيير كبير في نوعية المحتوى المنشور، "فوسائل التواصل الاجتماعي تميل إلى مكافأة المحتوى القصير والأكثر بصرية وانفعالية"، كما أن المحرّرين في مؤسسات الأخبار الكبرى باتوا "يعتقدون أن مواقع التواصل تشجع الأخبار الخفيفة على الثقيلة" (8).
واعتمدت الدراسة ذاتها على أرقام لمنصة "نيوزويب" (NewsWhip) التي تدرس إحصائيات مواقع التواصل، فمن

أكثر المقالات التي حصلت على أعلى تفاعل في أغسطس/آب 2018 مقال منشور في موقع "لادبايبل" (ladbible) تحت عنوان "الأخ الأكبر يحصل على وشم الأخ الأصغر مع متلازمة داون على الذراع.. إنه يحب الوشم تمامًا"، إذ حصل على 2,5 مليون تفاعل. وقد صنفت الدراسة هذا الموقع على أنه واحد من "مزارع المحتوى" (Content farms) التي تعمل على إنتاج قصص ضعيفة المحتوى بعناوين مثيرة، لأجل الوصول إلى أكبر جمهور في مواقع التواصل (9).

المشكلة الأكبر للصحافة في عصر الإنترنت، أنها كثيرًا ما تكون متأخرة عن التكنولوجيا، فتلجأ حينها إلى استعارة طرق للنشر سبقتها إليها منصات أخرى غير صحفية، وحتى أشخاص يعملون في مجالات تكنولوجية لا علاقة لها بالصحافة. فمثلا، حتّم التطوّر الحاصل في النشر على مواقع التواصل الاجتماعي على المؤسسات الإعلامية الاستنجاد بخبراء يعرفون طرق إيصال المنشور إلى الجمهور بشكل ناجح، وهو ما جعل وظيفة مدير مواقع التواصل الاجتماعي تتحوّل لاحقًا عند الكثير من المؤسسات إلى وظيفة صحفية يقوم بها صحفيون يتوفرون على تكوين في هذا المجال، بعدما تبيّن أن النشر على المواقع الاجتماعية يحتاج كذلك إلى مهارات تحريرية والتشبع بأخلاقيات المهنة وقواعد المؤسسة.

بيدَ أن تحدي العلاقة بين الصحافة والتكنولوجيا ليس جديدًا، وإنما يعود إلى بدايات الصحافة الرقمية. ويلخّص روسبريدر المشكلة في كتابه من خلال اقتباس عن المُحاضر في التواصل جوزيف كامبل يقول فيه: "لم تكن أيّ صناعة غير مؤهلة للعصر الرقمي عام 1995 كما جرى مع صناعة الأخبار.. لقد عانت من عمًى ابتكاري وعدم القدرة أو التردّد في توقع وفهم نتائج تقنيات الإعلام الجديدة". ويعد العام 1995 مفصليا في مجال الإنترنت، إذ ألّف كامبل كتابًا بعنوان "1995.. العام الذي بدأ فيه التاريخ"، بما أنه شهد إطلاق المنصات الشهيرة مثل إيباي وأمازون، وتطوير مايكروسوفت لنسخة "ويندوز 1995" (10).

لا نحتاج روابطكم!

يمكن القول -ودون العودة إلى تفاصيل تاريخ الصحافة الرقمية العربية- إن بدايات الألفية الجديدة شكّلت منطلقًا لعدد من المؤسسات الإعلامية العربية لإنشاء مواقع إلكترونية تحدث باستمرار، سواء أكانت هذه المؤسسات قنوات تلفزيونية في الأصل، أو صحفا مطبوعة، أو إذاعات، أو حتى مواقع إلكترونية قائمة بذاتها. لكن الانتشار الأكبر لم يحدث إلا في نهاية العشرية الأولى وبداية العشرية الثانية من الألفية.

وما لبث الإعلام الرقمي في المنطقة يواكب المواقع الإلكترونية حتى جاء تحدي الهواتف الذكية التي تحوّلت -شيئًا فشيئًا- إلى الأداة الأولى لتصفح الإنترنت. ونستطيع الاستدلال تاريخيًّا على هذه المرحلة بما أعلنه فيسبوك عام 2012 عن وصوله إلى مليار مستخدم نشط، بينهم 600 مليون عبر الهواتف (11)، في وقت لم تنتبه فيه الكثير من مؤسسات الإعلام الرقمي في المنطقة العربية إلى هذا النمو المتسارع في هذا النمط الجديد من الاستهلاك، إذ لم تكن حينها تملك تطبيقات للهواتف الذكية، ولا تتوفر حتى على نسخ تصلح للتصفح من الهاتف، أو ما يعرف باسم "Mobile friendly".

ولعلكم تذكرون الطفرة التي وقعت في فيديوهات فيسبوك عام 2013 عندما أعلن أن الفيديوهات في صفحة الاستقبال (News feed) ستعمل تلقائيا دون الحاجة إلى النقر على زر تشغيلها (12)، وهو ما جعل فيسبوك يعي بسرعة أن هذه التغييرات مكّنته من رفع عدد متابعة الفيديوهات (13)، فتحوّل الفيديو إلى أبرز طريقة لتحقيق التفاعل على هذه الشبكة. وإذا عدنا بذاكرتنا "الرقمية" إلى الوراء، سنتذكر كيف أطنبت صفحات كبيرة في نشر الفيديوهات عامي 2014 و2015، لدرجة أن هناك من بدأ يشكو على صفحات فيسبوك كيف السبيل لتقليل ما يراه من فيديوهات على اليوميات!

استحوذت غوغل وفيسبوك على نسبة كبيرة من إعلانات المنصات الرقمية (تصوير: أرند ويغمان - رويترز).

أثّر هذا الواقع الجديد على إستراتيجية المواقع الصحفية في الاستفادة من هذه المنصة الاجتماعية، إذ أدركت أن نسبة وصول منشوراتٍ على شكل روابط إلى الجمهور تبقى متدنية مقارنة بوصول مقاطع الفيديو أو الصور، أي المنشورات المعدّة حصرًا للاستهلاك داخل فيسبوك دون الحاجة إلى النقر على رابط خارجي، وهو الأمر ذاته الذي تأكد كذلك في تويتر.

وترسّخ هذا الاقتناع عندما تبيّن لاحقًا أن هذه المنشورات المعدّة للاستهلاك على فيسبوك وتويتر، تطوّر حسابات المؤسسات الإعلامية على المنصتين وتتيح لها المزيد من الانتشار، جنبًا إلى جنب مع خطة تسويقية قائمة على ترويج المنشورات بمقابل مادي. وزادت المنافسة القائمة بين المواقع الاجتماعية على ارتهان المؤسسات الإعلامية لها، ففيسبوك مثلا لا يفضل فقط الفيديوهات المنشورة على صفحاته مقارنة بمشاركة روابط فيديوهات من مواقع أخرى خاصة يوتيوب، بل أضحى يُضعف قدرة وصول هذه الروابط إلى مستخدميه، مقارنةً مع تقوية وصول فيديوهاته إليهم. وطبعا تعرفون السبب، فالمنافسة الشديدة بين عملاقي الإنترنت غوغل وفيسبوك تجعل كل واحد منهما لا يرغب في مساعدة الآخر على تحقيق نتائج قوية!

تؤكد دراسة أجرتها شركة "كوينتلي" (Quintly) عام 2018 هذا الواقع، فقد بيّنت أن فيديوهات فيسبوك تحقق مشاركة بين مستخدمي هذه المنصة بنسبة تفوق روابط الفيديوهات الأخرى بنسبة 477٪، وبنسبة تعليقات تفوق 530٪، مما يجعل منتجي المحتوى في فيسبوك -بمن فيهم وسائل الإعلام- يفضلون تحميل فيديوهاتهم على فيسبوك مباشرة بنسبة 89٪، مقارنة بنسبة 8٪ فقط ليوتيوب و0,15٪ لمنصة "فيميو" (14).

وأثرت هذه المنافسة على شكل الفيديوهات التي تنتجها المؤسسات الإعلامية الرقمية، ففيسبوك مثلا يفضل الفيديو المربع (1:1)، والفيديو على شكل 16:9 بالنسبة ليوتيوب، بينما يحبذ إنستغرام الفيديو المربع إن تعلّق الأمر بلوحة الاستقبال (Feed)، ولكنه يضع خصائص أخرى على خدمة "IGTV"، إذ يشدّد على إخراج الفيديو بنسبة 9:16 إن كان عموديا، و16:9 إن كان أفقيا (15). كما أن كلّ منصة تُفضل أو تلزم بتوقيت معين، فلوحة الاستقبال في إنستغرام لا تتيح نشر أيّ فيديو تتجاوز مدته دقيقة، ممّا يجعل المؤسسة الإعلامية ملزمة بضغط القصة خلال هذه المدة الزمنية القصيرة. والأهم من كل هذا، أن المؤسسات الإعلامية لا تملك داخل هذه المنصات الاجتماعية سوى صفحات معينة. وكما تقول روان الضامن المديرة التنفيذية لشبكة "إعلاميون من أجل صحافة عربية استقصائية" (أريج) في أحد التدريبات الرقمية، فإن "مؤسسات الصحافة تؤجر فقط مساحةً داخل هذه المنصات" (16)، والفيديوهات معرّضة للحذف من لدن إدارة هذه المواقع لأسباب

وسائل التواصل الاجتماعي باتت تهدد أسس الإعلام الكلاسيكي (تصوير: ليون نيل- غيتي).

معينة (نزاع على حقوق الملكية، حملة إشعارات من المستخدمين ضد محتوى ما، أو تأويل من إدارة المواقع بأن الفيديو يخرق أحد قوانين النشر الخاصة بها)، أو أحيانًا تكون الصفحات برمتها معرّضة للحذف، كما جرى لصفحة موقع مغربي (17).

وهناك ظاهرة أخرى في عالم الإعلام الرقمي، تتمثل في استنجاد مؤسسات كبرى بنجوم اليوتيوب كي يكونوا جزءًا من المحتوى الذي تقدمه. وكمثال على ذلك، الشاب المصري أحمد الغندور الذي يقدم برنامج "الدحيح" على "AJ+ كبريت"، ويوسف حسين صاحب برنامج "جو شو" على تلفزيون "العربي". إنه استنجاد ضروري لعدد من وسائل الإعلام، سواء منها الرقمية أو الفضائية، لأن الشهرة التي حققها صناع المحتوى على اليوتيوب تتيح لهم المساهمة في توسيع القاعدة الجماهيرية للمؤسسة المعنية. لكن هذا الأمر ينطوي على مفارقة غريبة: فمن جهة يتبيّن أن الإعلام فقدَ سبقه الحصري في أن يكون الوسيط بين أصحاب المحتوى القوي والجمهور، إذ صار بإمكان هؤلاء

أن يتوجهوا إلى الجمهور مباشرة لحصد متابعة هائلة، ومن جهة أخرى يتبيّن أن منصات الإعلام الكبرى ما زالت قادرة على جذب هؤلاء المؤثرين، وعلى إقناعهم بالمرور عبر اسمها.

هل فقدنا ثقة الجمهور؟

الكثير من الأخبار التي يقرؤها أو يشاهدها المتلقي على الإنترنت يصادفها في مواقع التواصل الاجتماعي، ففي استطلاع لمركز "بيو" للأبحاث عام 2018، تبيّن أن 68٪ من الأميركيين ما فوق 18 عاما، يحصلون على الأخبار عن طريق مواقع التواصل، شكل الفيسبوك النسبة الأكبر منها بـ43٪، وبعده يوتيوب بنسبة 21٪، ثم تويتر بنسبة 12٪ (18).
لكن تأثير المواقع الاجتماعية لا يتوقف هنا، فعندما ينقر مستخدموها على رابط خبر ما، لا يتذكرون بالضرورة اسم المؤسسة التي نشرت الخبر، وهو ما تؤكده دراسة "لمعهد رويترز لدراسة الصحافة" حول الأخبار في فيسبوك، فما نسبته 47٪ من مستخدمي المواقع الاجتماعية في المملكة المتحدة هم من يتذكرون اسم المؤسسة، بينما يتذكر 67٪ منهم الشبكة الاجتماعية التي نقروا من خلالها على هذا الخبر (19).
وخطر هذا الاعتماد المكثف على المواقع الاجتماعية يتمثل في توفير بيئة خصبة للأخبار الكاذبة، التي كثيرًا ما يكون مصدرها مواقع إخبارية لا تحترم قواعد العمل الصحفي ولا أخلاقياته. والمثير في الأمر، أنك تجد أحد المواقع المصنفة في خانة "الصحافة الصفراء" يملك قاعدة كبيرة من المتابعين على الشبكات الاجتماعية التي ينشر فيها أخبارًا كاذبة، غالبًا ما تكون عن قصد لغرض تضليل الرأي العام.

وربما قد يكون هذا هو السبب الذي جعل 57٪ من الأميركيين الذين شملهم استطلاع مركز "بيو" للأبحاث، يقولون إنهم لا يتوقعون من الأخبار على مواقع التواصل أن تكون دقيقة (20).

ومن هنا يأتي الخطر الأكبر الذي يتهدّد الصحافة: فقدان ثقة الجمهور، والمؤشر ليس ورديًا على أيّ حال حسب "تقرير رويترز للأخبار الرقمية 2019"، إذ انحدر إلى 42٪، بناقص درجتين عن مؤشر 2018، ولا تبلغ الثقة في الأخبار المنتشرة عبر مواقع التواصل سوى 23٪، بـ10 درجات أقل عن الأخبار التي يجدها المتلقي عبر البحث (21).

المعلنون يصرفون النظر عنا!

تبني جلّ المؤسسات الإعلامية الرقمية نموذجها الاقتصادي على الإعلانات كأحد مصادر الدخل الأساسية، وكذلك الشراكات وأحيانًا تمويلات منظمات غير حكومية أو اشتراكات القراء، أو حتى التمويل الحكومي. هذه الإعلانات كانت تتلاءم مع مواقع الصحافة الرقمية، لكن مع انتقال المحتوى إلى صفحات هذه المواقع على الشبكات الاجتماعية، أضحى التحدي هو كيفية نقل الإعلانات إلى هذه المنصات.

وإذا كانت الصحف الرقمية قد عانت في بداياتها داخل المنطقة العربية من تردد المعلنين الذين تأخروا -مقارنة بالغرب- في الثقة بالوسيط الرقمي، واستمروا في منح التلفزيون والراديو والصحافة المطبوعة الحيز الأكبر من إعلاناتهم، فإنه ما إن تحوّل المعلنون إلى الصحافة الرقمية حتى تبيّن أن الإنترنت يتيح لهم إمكانيات لترويج علاماتهم التجارية بأسعار تنافسية أقل بكثير مما تطلبه الصحافة الرقمية.

والبداية كانت بإعلانات غوغل التي أتاحت للمعلنين ترويج روابطهم بأسعار تنافسية، لدرجة أن الكثير من الصحف الرقمية لم تجد بدًا من السماح لإعلانات شركات محلية بالظهور عندها، لكن على شكل إعلانات غوغل، مما قلّل كثيرًا من الأرباح التي كان يمكن لهذه الصحف أن تحققها إن هي تعاملت مع المعلنين مباشرة دون المرور عبر غوغل، خاصةً مع ضعف قيمة سعر النقر على إعلانات غوغل أو مشاهدته في الكثير من دول المنطقة العربية، مقارنة مع السعر ذاته في الدول الغربية، وهو أمر معروف منذ مدة، إذ لا يتعامل غوغل مع المستهلك في الدول السائرة في طريق النمو كما يفعل مع المستهلك في الدول الغنية.

ثم جاء فيسبوك الذي لم يتح للشركات ترويج علاماتها التجارية في الإعلانات الجانبية فحسب، بل مكّنها من خلق صفحات، ودفع مقابل مادي بسيط للغاية (مقارنة بما كانت تدفعه في الإعلانات التقليدية) لترويج منتجاتها، وغالبًا ما تكون المنشورات على شكل فيديوهات أو صور، بما يرفع حجم التفاعل إلى أبعد مدى.

وتأكدت هيمنة غوغل وفيسبوك على سوق الإعلانات الرقمية، فوفق تقارير إعلامية عام 2018، يهيمن الاثنان على سوق الإعلانات على الإنترنت في المغرب بنسبة 70٪، وهو ما يتسبّب في خسائر كبيرة، ليس فقط لوسائل الإعلام التي كانت تمني النفس أن يكون لها نصيب أكبر من الإعلانات، بل كذلك للدولة التي لا تفرض أيّ ضرائب على الشركتين العملاقتين، مما تسبب في خسارة المغرب سنويًا قرابة 600 مليون درهم حسب التقديرات (22).

وبشكل عام، وفي الولايات المتحدة مثلا، استحوذ فيسبوك على 40٪ من الإعلانات على الإنترنت عام 2018، بينما حصلت غوغل على 12٪. وتزداد النسبة على الهواتف الذكية، إذ تصل بالنسبة لفيسبوك إلى 58٪، في حين لم تستطع أيّ شركة أخرى الوصول إلى نسبة 10٪، حسب تقديرات "إي ماركيتر" (eMarketer) التي نقلها تقرير لمركز "بيو" (23). وما يزيد من تحدّي النموذج الاقتصادي للمؤسسات الإعلامية الرقمية أن فيسبوك لم يبدأ في تفعيل خاصية الإعلانات داخل المحتوى إلا مؤخرًا، وتحديدًا في مقاطع الفيديو التي تتجاوز ثلاث دقائق، رغبةً منه في منافسة يوتيوب الذي يجذب الكثير من صناع المحتوى بالنظر إلى تفعيله خاصية الإعلانات داخل الفيديوهات.

وإذا كان يوتيوب قد قطع أشواطًا كبيرة فيما يعرف باسم "Monetisation"، أي تمكين صانع المحتوى من تحقيق عائد مالي عبر الإعلانات، فإن فيسبوك لم يطوّر التجربة كثيرًا، وهي لا تزال في مراحلها الأولى التي غالبًا ما ستكون تجريبية وستطرأ عليها الكثير من التغييرات.

وكمثال على ذلك، نأخذ منصة مغربية إعلامية تخصّصت في النشر الحصري في فيسبوك، هي "موستاشو" (Moustacho) التي تهتم بنشر مقاطع فيديو قصيرة لقصص إيجابية عن المجتمع (24). يقول أسامة أبرشا -وهو أحد مؤسسيها- إن "المقاطع التي ينشرونها بشكل مستمر على فيسبوك لا تتيح للشركة ربح المال مباشرة من هذه المنصة الاجتماعية. لكن الشركة تعتمد على المشاهدات التي تحققها مقاطعها على فيسبوك لأجل إظهار خبرتها في إنشاء المحتوى"، وبالتالي يتم "تمويل الشركة من خلال تطوير الإستراتيجيات الإعلامية، وإنتاج المحتوى وتطوير محتوى المواقع الاجتماعية للعلامات التجارية المغربية التي تثق في فريق هذه الشركة الصغيرة" (25).

بالطبع، ليست كل هذه التحوّلات التي تطرأ على مجال الإعلانات دون نتيجة على مهنة الصحفي، ففي إحصائية لمركز "بيو"، خسر قطاع الصحافة داخل الولايات المتحدة 28 ألف وظيفة خلال عشر سنوات، مما شكل تراجعًا بنسبة 25٪، فمن أصل 114 ألفًا كانوا يعملون في مختلف قطاعات الأخبار عام 2008، وصل الرقم عام 2018 إلى 86 ألفًا (26).

غوغل وفيسبوك في قفص الاتهام، ففي تعليق لها على الإحصائيات الخاصة بالخسائر والأخرى المتعلّقة باستهلاك الجمهور للأخبار عبر المواقع الاجتماعية، تقول مديرة مركز "تاو" للصحافة الرقمية إيميلي بيل في مقال على الغارديان، إن "الخطأ الأكبر لمعظم الناشرين في الفضاء الرقمي أنهم يعتقدون أن غوغل وفيسبوك لديهما اهتمام جدي بدعمهم"، مضيفةً أن "كمّ المعلومات التي تجمعها وتتحكم فيها شركات الإنترنت الكبرى تتيح لها تقديم عروض أكثر فعالية للمعلنين من أيّ ناشر آخر"، قبل أن تؤكد أن المنصات الرقمية الكبرى، وإن "لم تكن لديها نيّة مقصودة لسحب الإعلانات التي كانت تدعم الصحافة ماليًا، فهي لا تهتم هل سينجو الناشرون أم لا" (27).

هل سننقرض؟

الكثير من التقارير التي تتنبأ بمستقبل الصحافة لا ترى أن السلطة الرابعة قادرة على

الخروج من شرك الشبكات الاجتماعية، وهو وضع لم يسبق للمهنة أن عاشته في كل تاريخها، إذ لم تكن بكل هذه التبعية لمنصات أخرى. صحيح أن القنوات الفضائية عاشت لسنوات تحت رحمة الأقمار الصناعية (قبل وصول البث عبر الإنترنت)، لكن هذه الأقمار لم تكن تهدّد الإعلام الفضائي، بل بالعكس، كانت مجرّد أداة ساعدت القنوات على الوصول إلى أكبر جمهور. هل ستنقرض مهنة الصحافة؟ هل علينا البحث عن مهنة أخرى نعيش منها؟ وسط كل التكهنات السلبية بأن الصحافة ستعاني أكثر لأسباب منها تنامي سيطرة المواقع الاجتماعية كما بسطنا ذلك، فإن هناك دائما بارقة أمل في آخر النفق.

"نيويورك تايمز" مثلا، تخطت عتبة خمسة ملايين مشترك في النسختين الورقية والرقمية نهاية العام 2019، حاصدةً أكثر من 800 مليون دولار من الأرباح الرقمية، مما وفر لها بديلا قويا للإعلانات التي تراجعت (28). ويؤكد هذا المثال أن مهنية المؤسسة الإعلامية ومصداقيتها قد يلعبان دورًا رئيسيًا في الخروج من أزمة الإعلانات الرقمية التي لا يمكن الحديث عنها إلا باستحضار المواقع الاجتماعية.

ويمثل المتابعون الأوفياء للإعلام الرقمي التجاري طوق نجاة حقيقيا بعيدًا عن الاعتماد الكلي على المعلنين، ويكاد ينطبق الأمر على صحيفة "واشنطن بوست" التي وصلت عام 2018 إلى 1,5 مليون مشترك في النسخة الرقمية (29). كما أن مساهمات القراء -سواء عبر اشتراكات أو تبرّعات مباشرة- مكّنت الشركة المالكة "للغارديان" من تحقيق 224,5 مليون جنيه إسترليني في موسم 2018-2019، منها 28٪ قادمة من القراء (30)، علمًا بأن النسخة الرقمية من "الغارديان" مجانية، لكن مع ضرورة الإشارة إلى أن الصحافة الرقمية المدفوعة في المنطقة العربية لا تزال محتشمة جدا، ولا يزال المتتبع العربي يتعامل مع الإنترنت على أنه مصدر للخبر المجاني.

ويمكن الاستشهاد بأهمية مصداقية المؤسسة الإعلامية في بناء جسور ثقة مع القراء، بالدراسة التي أجرتها رويترز حول "الأخبار في فيسبوك"، إذ 69٪ من مستخدمي هذا الموقع الذين يتذكرون اسم المؤسسة التي نشرت الخبر، يتذكرون أيضا اسم "الغارديان" كمصدر لهذا الخبر، وتصل النسبة لموقع "بوزفيد" إلى 68٪، و59٪ "للبي. بي.سي" (31).
لكن هناك عوامل أخرى لا تتعلّق فقط بالمؤسسة الإعلامية أو بقرائها، ومن أهمها ضرورة بناء علاقة جديدة بين الشبكات الاجتماعية والصحافة، أساسها التوازن، بدل أن تميل الكفة إلى عمالقة الإنترنت كما هو عليه الحال اليوم. وبمنأى عن منطق الأرباح، يحتاج كل طرف إلى الآخر، وإذا ما انقطع الوصال بينهما، ستسقط المواقع الاجتماعية أكثر في فخ الأخبار الكاذبة والمعلومات المضلّلة، وفي الجانب الآخر، ستفقد الصحافة منصات جماهيرية مهمة للغاية.

كما تبقى السياسات العمومية مهمةً للغاية في هذا الاتجاه، وعلى غرار سن قوانين تشريعية لحماية السينما من الآثار السلبية التي خلّفها الإنترنت، يمكن كذلك التدخل بشكل إيجابي لصالح الإعلام الذي يمثل خدمة عمومية ضرورية في البناء الديمقراطي أو استمراره، وأول تدخل هو تشجيع السوق المحلية للإعلانات على التوجه إلى الشركات المحلية، ومنها الإعلامية، مع ضرورة أن تعي هذه الأخيرة أن سوق الإعلانات تغير بشكل جذري، وأنها كذلك ملزمة بتطوير عروضها حتى يجد المعلن غايته عندها ولا يركز على غوغل وفيسبوك.
إن سند الصحافة اليوم هو جمهورها، والمطلوب من المؤسسات الإعلامية العربية أن تبني جسورًا من الثقة معه، ولن يتأتى ذلك إلا بتقديم محتوى إعلامي متطوّر تقنيًا، يستجيب لحاجيات المتلقي، بعيدًا عما نراه من انتهاكات مستمرة لحق المواطن في صحافة تحترم دورها داخل المجتمع.

الأمل لا يزال مستمرًا ويجب أن يستمر.. ففي النهاية، لا صحفي يحب مهنته يرغب أن يحكي لأحفاده أنه كان أحد آخر العاملين في مهنة انقرضت!

يمكنكم العودة إلى المراجع في المقال المنشور على الموقع.

من «ساعة الصفر» إلى «حافة الهاوية» مستقبل الصحافة في التّنوع والتعاون والتعلّم!

المقال الفائز بجائزة أفضل مقال لمجلة الصحافة

علي شهاب

هل يمكن للصحافي اليوم أن يشتغل لوحده دون شبكة من الصحافيين. هل يطمئن إلى قدراته فقط، كي ينجز قصة صحافية، ما الذي يحتاجه ليتعلم؟ تجربة مكثفة، تسرد كيف يوسع الصحافي من أفقه في البحث والتقصي.

لم نكن قد أنهينا بعدُ كتابة تصور فيلم وثائقي لصالح قناة "الجزيرة" عام 2010، حتى اضطررنا إلى مواجهة سيل من الانتقادات والشتائم من قبل الجمهور العربي واللبناني بسبب نشرنا صورة ترويجية للفيلم يظهر فيها علما حزب الله و"إسرائيل" يقابلان بعضيهما، على موقع "فيسبوك".

كانت فكرة الفيلم الذي قررنا تسميته "ساعة الصفر"، إجراء "محاكاة" افتراضية لما سيكون عليه شكل أي حرب مقبلة بين الطرفين.

في العادة، تلجأ قيادات الجيوش الكبيرة إلى إجراء "المحاكاة" لرسم السيناريوهات ووضع الخطط العسكرية، لكن استخدامها في العمل الوثائقي كان أمرًا غير مسبوق.

غالبًا ما يلجأ الصحفيون الذين يتناولون الصراع في الشرق الأوسط إلى التغاضي عن معرفة رأي الطرف الآخر، مما يؤدي إلى نقص حاد في المعلومات وخلل في المعالجة الموضوعية للمنتوج الصحفي. فنجد أن الصحافة الإسرائيلية تبني معطياتها بناءً على ما تسربه المؤسستان العسكرية والأمنية في "تل أبيب"، وهو يخضع بشكل مباشر لمقص

الممولون السياسيون واعون بضرورة الاستثمار في تجارب جديدة تقلص من النفقات (تصوير: جايسوم ديدموند - رويترز).

الرقابة العسكرية، في حين أن القلّة من الصحفيين العرب الذين يتناولون هذه المسألة؛ يعتمدون في الغالب على انطباعات شخصية، أو تحيّز مسبق يتداخل فيه الانتماء السياسي مع الالتزام العقائدي. ويضاف إلى كل ذلك وعي جماهيري ماسخ يفتقر في الأغلب إلى المنهج العلمي والمهنية.

ومن المعلوم أن موطني لبنان في حالة حرب مع إسرائيل التي تحتل جزءً من أراضيه، حيث شنّت في ثلاثة عقود من الزمن خمس حروب على هذا البلد الصغير. وبالتالي يُمنع على أي لبناني إجراء أي اتصال مع إسرائيلي لأي سبب، وينسحب هذا القانون على العمل الصحفي والإعلامي.

وهكذا وجد فريق العمل نفسه أمام معضلة حقيقية، إذ كيف يمكن إنتاج فيلم بهذه الحساسية دون الوصول إلى المعلومات من مصدرها المباشر. ولا تقتصر هذه المعضلة على إسرائيل، بل إن الطرف الآخر الرئيسي في الفيلم؛ أي حزب الله، لا يتحدث عادة عن تحضيراته وانتشاره العسكري لكونه منظمة سرية تعتمد أسلوبا غير كلاسيكي في القتال.

أجاب رئيس الأركان السابق في الجيش الإسرائيلي على طلب المقابلة برسالة حانقة وقاسية مشككا في قدرة الصحافة العربية على ضمان «التوازن».

انطلقنا بداية من التوصيات العلنية التي أعلنت عنها لجنة تحقيق إسرائيلية بقيادة القاضي إلياهو فينوغراد الذي أوكل إليه تقييم نتائج الحرب بين "إسرائيل" وحزب الله عام 2006.

فالتقرير المعروف باسم "تقرير فينوغراد" تضمّن معلومات هامة حول أبرز الثغرات التي تحتاج المؤسستان العسكرية والسياسية في إسرائيل إلى معالجتها في أي حرب مقبلة. اعتمد البحث عن المصادر الأولية أيضا على عشرات الدراسات العسكرية المتخصصة التي أجرتها مراكز دراسات أميركية وإسرائيلية، وهي عادة ما تكون مواد فائقة الأهمية ويجري إهمال أجزاء كبيرة منها في الإعلام العربي عمومًا، وليس هناك تحليل أو فهم دقيق لمنهجيتها وأهميتها. ثم عمدنا إلى تحديد أسماء شخصيات خبيرة على ارتباط بالجيش الإسرائيلي لإجراء مقابلات معها.

لم يكن إقناع الضيوف الإسرائيليين بإجراء المقابلات أمرًا سهلا، خاصة أن العملية لم تكن تتم بيننا -كفريق باحثين ومعدّين وكُتّاب سيناريو- وبينهم مباشرة للاعتبارات القانونية، بل كانت تمرّ عبر فريق صحفي موجود في فلسطين. لكن في إنتاج الأعمال الوثائقية، يشكل الرفض بحد ذاته مادة يمكن الاستفادة منها.

يومها، أجاب رئيس الأركان السابق في الجيش الإسرائيلي دان حالوتس على طلبنا إجراء مقابلة برسالة إلكترونية حانقة وقاسية احتفظنا بها كمادة للاستخدام في الفيلم. كان سبب رفضه هو التشكيك في قدرة وسيلة إعلامية عربية على "التوازن" عند الحديث عن موضوع بهذه الحساسية. وفي الجهة المقابلة، واجهنا رفضًا لطلب إجراء مقابلة مع مسؤول عسكري في حزب الله رغم اقتراحنا عدم إظهار وجهه الحقيقي على الكاميرا. قررنا اللجوء إلى إعداد مقابلة مع ضباط عسكريين في الجيش اللبناني لتعويض هذا الفراغ، خاصة أن الجيش في لبنان على تماس مباشر مع الحروب السابقة، وهو معني

التوثيق يحتاج إلى الصبر وإلى تقبل الانتقادات حتى لو وصلت حد التجريح (تصوير: سبنسر بلات - غيتي).

بطبيعة الحال بأي حرب مقبلة وبالإجراءات العسكرية من الجهة اللبنانية.

سرعان ما تبين أنّ الطرفين يشتركان في ممارسة الحرب النفسية ومخاطبة جمهوريهما بما يطمئنهما إزاء قدرتهما على هزيمة الخصم الآخر، وبالتالي فهما قد يهتمان بالحديث الإعلامي -رغم عدائهما الشديد وعدم ظهورهما سويا في أعمال إعلامية- إذا ما تم تقديم فكرة الفيلم كما هي، وشرح ضرورة إجراء مقابلة مع جميع الأطراف، وإلا فسيظهر أنهما لا يمتلكان حلولا لسيناريوهات "المحاكاة" العسكرية!

وافق نعيم قاسم نائب زعيم حزب الله على إجراء مقابلة مطولة بعدما شرحنا أن الإسرائيليين سيدلون بآرائهم حول الموضوع. كما وافق ضابطان لبنانيان رفيعان متقاعدان حديثا على إجراء حوار مفصل بعدما أجرى كل منهما بحثه الخاص. وكذلك وافق ضابط عربي على الأمر نفسه.

في الجهة المقابلة، كان الضيف الإسرائيلي الذي خدم في الاستخبارات العسكرية، يضع كوب قهوة تظهر عليه صورة لزعيم حزب الله اللبناني حسن نصر الله على مكتبه أثناء التصوير. أخبر الضيف الإسرائيلي الصحفي الفلسطيني الذي كلفناه بإجراء المقابلة في إسرائيل، أن هذا الكوب كان هدية من أحد أصدقائه اللبنانيين!

من بين الضيوف الإسرائيليين الذين وافقوا على إجراء المقابلات، كولونيل سابق في سلاح الجو الإسرائيلي ومدير برنامج معلوماتي عسكري بمعهد الأمن القومي في "تل أبيب"، والمراسل العسكري لإذاعة الجيش الإسرائيلي، ومسؤول أميركي سابق في وكالة الاستخبارات العسكرية. كان التحدي الثاني الذي واجهناه هو أن كاتب السيناريو لبناني عربي، بما يعني أني سأكون متهمًا بالتحيّز حتى قبل إنتاج الفيلم بشكل نهائي. ولحل هذه المعضلة، قررنا اعتماد الدراسات الإسرائيلية نفسها التي ترسم سيناريوهات الحرب المقبلة كمادة أساسية لعرضها على مختلف الأطراف، وطلبنا منهم التعليق عليها. كما تقصدنا إدخال المنهج العلمي المتبع في الأبحاث العلمية في سيناريو الفيلم. وهكذا بدأ الفيلم بطرح الفرضيات والإشكاليات، ثم انتقل إلى محاولة الإجابة عنها عبر الضيوف المتنوعين. طرح السيناريو النهائي شرحًا لمحاور المعارك البرية، ودور سلاح الجو الإسرائيلي، وقدرات حزب الله الصاروخية، والمنظومات الإسرائيلية الحديثة لمواجهة الصواريخ، فضلا عن الإجراءات التي تم اتخاذها لمعالجة نقاط الضعف التي ظهرت لدى الطرفين في حرب 2006.
حاز الفيلم على تغطية إعلامية ممتازة في مختلف وسائل الإعلام الإقليمية. وسرعان ما تحولت الشتائم على صفحتي على "فيسبوك" قبل عرض الفيلم بثلاثة أشهر إلى سيل من الإشادة، وهذا هو عمل الصحفي على كل حال.
لم يكن مألوفا في الشرق الأوسط إنتاج عمل تلفزيوني حول قضية حساسة كالحرب "المقبلة"، خاصة ضد دولة محط استنكار شعبي شامل. في العام 2012، بعد أقل من عامين على عرض الفيلم، سُنحت لي الفرصة لتكرار التجربة، ولكن هذه المرة بشكل أضخم وأكبر وأهم. كنت قد تعلمت الكثير من التجربة السابقة، فأنتجت هذه المرة فيلما بإمكانات أضخم تحت عنوان "حافة الهاوية" في جزأين.

لم يكن الأميركيون والإيرانيون قد توصلوا إلى الاتفاق النووي آنذاك، وكان موضوع الفيلم الجديد إمكانية وقوع حرب إقليمية تشترك فيها إيران والولايات المتحدة وإسرائيل وسوريا ولبنان.. استطعنا تنفيذ مقابلات أكثر، والحصول على موافقة شخصيات نوعية في الولايات المتحدة وروسيا وإيران وإسرائيل.

في صباح اليوم التالي لعرض الجزء الأول من الفيلم، قال أحد المعلقين الإسرائيليين -وهو من كبار الصحفيين المشهورين- حرفيا عبر برنامج تلفزيوني على القناة الرسمية الأولى في إسرائيل "إن حافة الهاوية عمل موزون".

كانت هذه العبارة رغم صدورها من شخص يعيش في دولة تحتل جزءًا من بلدي ودمرت منزلي في القرية مرارا بفعل

ليس سهلاً على الصحفيين في الشرق الأوسط مقاربة المواضيع السياسية من دون التعرض للنقد (سيرجيو مورايس - رويترز).

قصفها واعتداءاتها المتكررة، بمثابة شهادة على إتقان العمل.

في الشرق الأوسط، ليس سهلا على أي صحفي في العادة مقاربة المواضيع السياسية، أو تلك التي تتعلق بالشأن العام، دون توقع التعرض للنقد أو لمخاطر شخصية.

لقد واجهت تهديدات متنوعة بعد كل فيلم أنتجه.. قد أكتب عن ذلك يوما ما، ولكن الدرس الإعلامي الذي خرجت به من مسيرة 15 عاما في كتابة الأفلام والسيناريوهات والأبحاث، أن التعددية ليست شرطا للتميز فقط في الشرق الأوسط.. التعددية هي السبيل الوحيد للتميز والموضوعية في الصحافة!

لم تنته القصة هنا..

التعاون العابر للحدود

التعاون مع صحفيين في عدة بلدان كان أحد أسباب نجاح التجربة في "ساعة الصفر" و"حافة الهاوية".

في الواقع، لقد بات التعاون العابر للحدود ضمن أولوية المقاربات التي تعالج الكثير من الإشكاليات التي أفرزتها التحولات الحاصلة والمستمرة في عالم الإعلام والصحافة. في الأشهر القليلة الماضية، أطلقت وسائل إعلام دولية مبادرات لتعزيز تعاونها مع الصحفيين المستقلين في بلدانهم. فمثلا، أنشأت صحيفة "واشنطن بوست" منصة تجمع فيها بيانات الصحفيين المهتمين بالتعاون معها في كافة أنحاء العالم، حيث يتواصل محررون في الصحيفة

مع صحفيين من هذه المنصة وفقًا للمواضيع المطلوب تغطيتها.

كذلك الحال بالنسبة لقنوات تلفزيونية بريطانية وفرنسية وألمانية، حيث اتّبعت الآلية نفسها لإنتاج موادها بالاعتماد على صحفيين من خارج دائرة التوظيف الدائم. "تقنين" هذا النموذج في التعاون وتثبيت آلياته يوفر حلولا عملية عديدة؛ أهمها:

ضمان التنوع في إنتاج المادة الإعلامية والصحفية، بدل الاعتماد على فريق التحرير المركزي البعيد جغرافيًا عن الأحداث، أو على المراسلين الثابتين الذين غالبًا ما يُستنزَفون في المقاربات الحدثية الضيّقة نتيجة طبيعة عملهم.

تطوير آليات إدارية أكثر ابتكارًا تتيح التعاون مع كفاءات من خارج المنظومة الإدارية للمؤسسات الإعلامية والصحفية، بعيدًا عن الروتين السائد والبيرقراطية التي تقع فيها المؤسسات الكبرى خاصة.
توفير الفرص للصحفيين المستقلين والجيل الجديد من طلاب الإعلام للمنافسة بأفكارهم والوصول إلى أهم المؤسسات الدولية، دون الحاجة إلى السعي وراء وظيفة ثابتة بالضرورة.

تعزيز المنافسة لصالح نوعية الفكرة والمعلومة، في ظل سيادة ثقافة "المواطن الصحفي" التي كادت تُلغي جوهر المهنة الأصلية لصالح السباق الصحفي.

وبما أنني أرفض الوظيفة عمومًا، وأفضّل العمل بشكل حر لكون ذلك يتيح لي الكثير من الفرص للتطور في أكثر من بُعد في آن واحد، فإنّ الانخراط في مبادرات تحاكي قناعاتي إزاء مستقبل الصحافة صار أولوية في نشاطي خلال السنوات الثلاث الماضية.

لكن هذا الطموح اصطدم بواقع الاستقطاب السياسي الحاد الذي انسحب على الإعلام العربي، وطغى على المعايير المهنية مانعًا قيام منظمات جامعة للإعلاميين والصحفيين العرب، بغض النظر عن أماكن عملهم. وهكذا صار لزامًا البحثُ خارج المنطقة العربية.

تبيّن أنّ واقع الصحافة عالميًا ليس بالسلبية السائدة في العالم العربي، فعمليات البحث والتطوير والمبادرات في أوروبا عمومًا، وألمانيا وبريطانيا تحديدًا، كما في الأميركيتين، تؤكد أن المشكلة الرئيسية في عالم الإعلام غير المستقر في طبيعته وجوهره؛ تكمن في عدم مواكبة البعض للتطور، وقصور الذهنيات الإدارية التقليدية في فهم واختبار آليات جديدة للنجاح في كسب أذواق الجمهور والاستثمار في سلوكه.

وقد انطلقت أبحاث أكاديمية في جامعات أوروبية بالاستناد إلى تجارب عملية تحاول تطوير نماذج أعمال مبتكرة بهدف تجاوز الأزمات التي تواجهها الصحافة في العالم.

أحد هذه النماذج ما بات يُعرف باسم "الصحافة العابرة للحدود"، غير أن أسباب التركيز على هذا النموذج لم يكن الموضوع المادي فقط، بل تبيّن أنه يضمن تعددية وتنوعًا أكبر في المواد الإعلامية كنتيجة طبيعية لتعاون المحترفين من عدة خلفيات وانتماءات، وبالتالي فهو يحاكي أكثر أذواق الجمهور الذي بات يبحث عن معالجة أوسع للقضايا العالمية، كما المحلية.

إحدى المنصات الرائدة عالميًا في مجال الصحافة العابرة للحدود هي "هوست رايتر" (Hostwriter) التي تتخذ من برلين مقرا لها، لكنها باتت تنتشر في أكثر من 145 دولة في العالم.

راسلتُ هذه المنظمة، وسرعان ما أثمر التواصل معهم عن تعييني سفيرًا لها في المشرق العربي.

في سبتمر/أيلول 2018، التقى سفراء المنظمة في العاصمة البولندية وارسو لصياغة برنامج عمل للمرحلة المقبلة، وبلورة عملنا كمنظمة صحفية عابرة للحدود الجغرافية والعرقية واللغوية.

وعلى مدى أسبوع كامل، انصبّ اهتمام 30 سفيرًا على بحث أبرز معوقات العمل الصحفي والحلول الممكنة، مع الاتفاق على الآليات اللازمة لمتابعة المهام مع عودتنا جميعا إلى بلادنا.

خلال أشهر قليلة، باتت منظمتنا تضمّ أكثر من أربعة آلاف صحفي، واستطعنا إنشاء شبكة علاقات مع كبرى وسائل الإعلام في العالم. وفي العام الأول بعد اجتماعنا في بولندا، استطعنا تطوير منصة رقمية تُنشر فيها على مدار الساعة الفرص والورش والزمالات والمنح والوظائف والمشاريع التي تهم الأعضاء في كافة أنحاء العالم. استغرق تطوير المنصة أشهرًا قليلة، حتى باتت مرجعًا أيضًا لمن يبحث عن صحفيين مختصّين في مجالات محددة في معظم دول العالم.

في النصف الثاني من العام 2019، بدأنا العمل على إصدار كتاب فريد في فكرته، ساهم في تأليفه عشرات الصحفيين بالاستناد إلى تجاربهم، تحت عنوان "الحيادية في الأخبار.. لماذا التنوع هام للصحافة؟". ضمّ الكتاب تجارب وخبرات في التغطية الصحفية للذكاء الصناعي، والحروب، والبيئة، والعنصرية، والفساد، والهجرة غير الشرعية، وغيرها من العناوين البارزة، فضلا عن تقديم لرسالتنا في المنظمة ولنظرية "الصحافة التشاركية العابرة للحدود"، مما أدى إلى اهتمام إعلامي دولي بالكتاب، فصنّفه مدير معهد "رويترز" لدراسة الصحافة الأستاذ الجامعي في "أوكسفورد" راسموس نيلسون ضمن قائمة أفضل 100 كتاب مؤثر حول الصحافة في العالم. كما تحدّثت أبرز المنظمات والمؤسسات الصحفية والإعلامية عن الإصدار.

في الوقت نفسه، تابعنا تنظيم مسابقة أفضل عمل صحفي تعاوني عابر للحدود على مدار العام.

اليوم، تُعتبر منظمتنا واحدة من أبرز المنظمات التي تسهّل "التشبيك" في الوسط الصحفي عالميًا، وتُعزز التعاون العابر للحدود بهدف "استنساخ" وتكرار تجربة "أوراق باناما" وغيرها من التجارب الرائدة.

الصحفي الصديق للذكاء الصناعي

تستند "أوراق باناما" ومثيلاتها من تجارب صحفية حديثة إلى إتقان الصحفيين المشاركين في المشروع العملَ على جمع البيانات واستخراجها وتحليلها وربطها.

أفقٌ آخر يستوجب منا -كصحفيين مواكبين لكل جديد- الاهتمام والتعلّم. قد تكون مهنة الصحافة من أكثر المهن جلبًا للتوتر والقلق والمشاكل، ولكنها أيضًا من أهم المهن منحًا للمتعة والمكافأة المعنوية والحرية في الابتكار إذا ما خرجنا قليلا من الإطار الجغرافي الضيّق لعملنا، خاصة مع التحول الحاصل في نظرية الرسالة والمُرسِل والمرسَل إليه نتيجة صعود شبكات التواصل والتطوّر التقني.

تُشير بعض الإحصائيات إلى أن أكثر من 30٪ من العاملين في مهنة الصحافة حول العالم، سيعملون بشكل حر بحلول نهاية العام الجاري.

المقلق في هذا التطور هو عدم استعداد ومواكبة الكثيرين في العالم العربي لهذا التحول، خاصة أولئك الذين يعملون في غرف الأخبار، حيث يصعب عليهم عادة الاطلاع على تجارب جديدة بسبب طبيعة المهنة التي تستنزفهم في الوقت والجهد.

وبينما يعتقد البعض أنّ التمويل السياسي قادر على الاستمرار في ضخ المال عبر الآليات التقليدية لدعم الإعلام، بات الممولون أنفسهم مقتنعين بضرورة الانتقال إلى الاستثمار في نماذج اقتصادية جديدة تقوم على المرونة وتقليص النفقات الثابتة لصالح زيادة الإنتاج النوعي.

هذه إشكالية أخرى يواجهها الصحفيون، خاصة الجيل التقليدي منهم الذي لم يتسنّ له مواكبة الأدوات والتقنيات الحديثة بسبب انغماسه في وتيرة العمل اليومي.

ولكن مع كل

التعاون بين الصحافيين في الكثير من البلدان كان وراء نجاح فيلم «حافة الهاوية» (غيتي).

مشكلة توجد فرصة حلّ!

قبل ثلاثة أعوام، طورت شركة "يونايتد روبوتس" السويدية روبوتًا صحفيًّا كتب حتى الساعة مليون مقال. إذا ما حاولت صحيفة "نيويورك تايمز" بكامل طاقتها إنتاج العدد نفسه من المقالات فإنها ستحتاج إلى 11 عاما من العمل!

حاليًّا يمكن اختصار مجالات الاستفادة من الذكاء الصناعي في غرف الأخبار بالعناوين التالية:

جمع كم هائل من الأخبار من مصادر متنوعة.

تصنيف الأخبار ضمن فئات بحسب الحاجة التحريرية لبناء القصص.

الرصد المُبكر للأخبار العاجلة عبر شبكات التواصل الاجتماعي قبل انتشارها في الإعلام التقليدي، عبر تتبّع مؤشرات محددة بالاستناد إلى خوارزميات معقدة.

تحليل البيانات لكتابة قصص إخبارية من زوايا غير تقليدية، كالتعرّف على السمات النفسية للرئيس الأميركي دونالد ترامب من خلال تحليل تغريداته، أو استخدام الواقع المعزز لإعادة رسم موقع حدث معيّن.

التحقق من الأخبار الزائفة ومكافحة التضليل وكشف التلاعب في المعلومات والصور ومقاطع الفيديو.

إنتاج قصص ذات نمط تكراري، كما يحصل في تغطية المباريات الرياضية، حيث يُمكن الاعتماد على الآلة لكتابة محتوى مبرمج الشكل مسبقًا.

هذه الأنماط من دمج الذكاء الصناعي وتطبيقاته في الصحافة تُعَدّ حاجة ضرورية ستفرض إيقاعها على العمل الصحفي في العالم العربي في المستقبل القريب.

لذا قررتُ خوض هذا المجال، بالتوازي مع نشاطي مع "هوست رايتر".
تُعدّ "رابطة الأخبار الرقمية"

الأميركية -ومقرها واشنطن- أكبر منظمة دولية غير حكومية تُعنى بتطوير الصحافة الرقمية في العالم بأسره، فهي تعمل منذ التسعينيات على دعم الابتكار في القطاع الإعلامي عمومًا، عبر توفير مساحة لالتقاء الصحفيين والكتّاب والمدراء التنفيذيين مع التقنيين والأكاديميين والطلاب والمستثمرين في المجالات الإعلامية.

في مطلع العام 2019، تواصلتُ مع الرابطة مبديًا اهتمامي بنقل تجربتها إلى بلدي. وعلى الرغم من أنها تموّل عادة النشاطات في الولايات المتحدة بالدرجة الأولى، فإنها رحّبت بفكرة التوسع نحو بلدان خارج القارة الأميركية. وهكذا صرتُ المسؤول عن المجتمع المحلي الخاص بالرابطة في أول بلد عربي. وبما أنّ التكنولوجيا بكافة أشكالها محلُّ استهداف بالنسبة إلينا في الرابطة، فإننا لا نرحب فقط بالصحفيين في نشاطاتنا، وإنما يشمل اهتمامنا كلا من الخبراء التقنيين والمطوّرين وأصحاب الابتكار في أي مجال يمكن استخدامه في الصحافة والإعلام.

وفي سعينا للتحضير لنشاطات الرابطة ولقاءاتها وورشها التي ندعو إليها عادة عبر مجموعة خاصة على تطبيق "ميت آب" (Meetup)، نجد أنفسنا في كل مرة أمام "بنك" واسع من المعلومات والأفكار والأدوات التي توفرها لي قاعدة بيانات "رابطة الأخبار الرقمية" في واشنطن، علمًا بأن الرابطة تتيح مشاركة المتعاونين معها أسبوعيا في تدريبات عن بُعد حول كيفية تنفيذ أفضل الورش واللقاءات لمساعدة الصحفيين المحليين ونقل المعرفة والخبرات إليهم.

لم أحلُم يومًا بأن أصبح صحفيًّا، ولا يزال التخصص في الفيزياء هو حلمي الأول، ولكني أستطيع القول -بلا أدنى شعور بندم أو حسرة- إنّ ما أتاحته وتتيحه لي مهنة الصحافة يجعلني أعيشها بفائض من السعادة، يتجاوز بخطوات شاسعة مزاعمَ ذلك الشخص الذي أطلق -سامحه الله- على هذه المهنة يومًا ما.. وصفَ "مهنة المتاعب".

التعاون بين الصحافيين الاستقصائيين يشكل تجربة واعدة لمستقبل المهنة (تصوير: صلاح ملكاوي - غيتي).

الإعلام الغربي.. الاستشراق عدوًّا للحقيقة

محمد أحداد

يصر جزء كبير من الإعلام الغربي على تناول قضايا حساسة بنظرة استشراقية، فتُبتَر السياقات وتُقصى الحقائق لتشبع خيالات قارئ مهووس بالعجائبية. والدليل: التغطية السطحية لقضية زراعة الحشيش في المغرب.

جزء كبير من الإعلام الغربي يريد أن يقنعنا أن الأباطرة الكبار يبيعون الموز أما المزارعين الصغار الفقراء، وحدهم يستفيدون من تجارة الحشيش (تصوير: بولا برونشتاين - غيتي).

«إذا لم أزرع هذه القطعة الصغيرة سأموت جوعا أنا وابني الصغير».. لم أتذكر من كل الشهادات التي جمعتها طيلة سنوات من العمل حول مواضيع زراعة القنب الهندي في المغرب، سوى ما قالته امرأة وجدتها في حقلٍ "للكيف» (الاسم المحلي للنبتة)، تصحب رضيعها الصغير، وتحرث الأرض بتفانٍ في بواكير الصباح.

مضت خمس سنوات على ذلك التحقيق الذي أنجزته عن الصراع حول مياه السقي المفضي إلى الموت في مناطق زراعة الحشيش، لكن الشهادة تحاصرني كلما تابعت تحقيقا جديدا للصحافة الإسبانية أو الفرنسية.

يزرعون الحشيش لا الموز

تقول القناة الإسبانية إن زراعة الحشيش تدرّ على المزارعين ملايين الدولارات سنويا. وكي يكتمل بؤس المشهد، تصور شهادة تقول إنها لفلاح «كبير» استطاع خلال سنوات قصيرة فقط أن يراكم ثروة هائلة.

عملتُ لمدة طويلة حول قضايا القنب الهندي، ولم يسبق لمزارع واحد أن قبل نشر اسمه أو صورته كاملة، وفي أقصى لحظات التسامح يطلب منك أن تخفي وجهه أو تموّه شهادته. أتذكر أنه في المرة الأولى التي وصلتُ فيها إلى بلدة تسمى «باب برد» تابعة لإقليم الشاون شمالي المغرب، لم أكن أعرف اسم واحد ممن سألتقيهم عدا صديق كان مكلفا بضبط مزاجهم حينما تنفلت مني كلمة أو عبارة لا تناسب السياق الموسوم بالخوف والتردد.. إنهم يزرعون نبتة محظورة ولا يزرعون الموز. لا يريدون الظهور في وسائل الإعلام، لأنهم متهمون على الدوام وفقراء على الدوام، يتضرعون إلى الله كل يوم أن تجود السماء ببعض المياه كي تزهر "نبتة الحياة»، لكن لا أحد منهم يتوفر على عقارات فارهة كما تتوفر عليها شبكات الاتجار الدولي في المخدرات، ولا أحد منهم أيضا يحوز أرصدة "سمينة» في البنوك، كما روجته وتروجه وسائل الإعلام الإسبانية والفرنسية خصوصا.

في تحقيقات لقناة «إم6» M6 الفرنسية ولجرائد وقنوات إسبانية، كنت أنتظر أن يثير الصحفيون كيف تتدخل شبكات الاتجار الدولي بالمخدرات في السيطرة على حصص الفلاحين الصغار من المياه التي يسقون بها «الكيف» وعطشهم.. كنت أبحث عن لمسة إنسانية، تقترب من هؤلاء الفلاحين الذين يواجهون منذ عقود ظلم الدولة وجشع الأباطرة الكبار.. أن تقترب أكثر من المبحوث عنهم -هؤلاء الهاربين من العدالة- بتهمة واحدة: زراعة «الكيف»، إما بشكايات كيدية توظف في الصراع السياسي، أو لأن القانون المغربي يمنع زراعتها ورعايتها. لكني كنت كمن ينتظر معجزة مستحيلة التحقق.. يعبُر أمامي شريط كامل من المشاهد التي تختصر مأساة فلاحين صغار لا يجدون حتى قوت يومهم، خاصة عندما حاصرت الدولة التجارة الدولية العابرة للقارات. وتعبُر أمامي مشاهد مجتزأة من تحقيقات تعج بالأحكام الجاهزة ونحت صورة يعشقها هؤلاء الذين حولوا الاستشراق إلى «عجل مقدس».

في مبادئ الصحافة البسيطة، كان على البرامج الاستقصائية أن تجيب على الأسئلة التالية: من المستفيد الأول من هذه التجارة؟ كيف تتحول مآسي المبحوث عنهم في قضايا المخدرات إلى أصوات انتخابية حاسمة؟ وكيف تتحكم المافيات في رقابهم؟ وكيف تحولت منطقة الشمال إلى معتقل احتياطي كبير يحوي بين ثناياه آلاف المبحوث عنهم؟ كيف يعيش هؤلاء وأين يقيمون؟ ولمَ تتلكأ السلطات في اعتقالهم إذا كانوا قد اقترفوا جرائم تستوجب السجن؟ ولمَ يتودد إليهم أباطرة الانتخابات؟

تطغى النظرة الاستشراقية التي تعج بالأحكام المسبقة على تناول موضوع زراعة القنب الهندي بالمغرب (تصوير: رافائيل مارشانتي - رويترز).

هل هناك تاجر كوكايين في العالم يربح المليارات، يظهر على التلفزيون «عاريا» وفي مكان عام؟

الخيال عدو الحقيقة

لكن هؤلاء يحبون السينما والأفلام الخيالية أكثر من الانحياز إلى الحقيقة. قبل شهور، أصدرت المديرية العامة للأمن الوطني بلاغا حول واقعة تصوير برنامج تلفزيوني في طنجة مع من وصفه الصحفي بأشهر تاجر كوكايين في الشمال المغربي.. كنتُ أخمّن -بل كنت متيقنا- أن القصة لا يمكن تصديقها، وأنها ذات نفس تخيّلي.. أعرف ذلك لأن للإعلام الإسباني والفرنسي -على نحو خاص- سوابق في الادعاء وصنع البهارات والبتر والحذف والإقصاء.. وحين صدر البلاغ قلت في نفسي: هل هناك تاجر كوكايين في العالم يربح المليارات، يظهر على شاشة التلفزيون عاريا وفي مكان عام؟

منذ زمن بعيد يريد جزء من الإعلام الغربي أن يصور المغرب وحده «لا شريك له» في إنعاش تجارة الحشيش، وأن زعماء الشبكات الإسبان والفرنسيين والإيطاليين ينعشون «تجارة الموز»، بل إن الطور الثاني من هذه الخطة انتقل إلى اختلاق قصص وفبركة وقائع حول انتشار الكوكايين في مدينة لا تبعد سوى ساعة عن إسبانيا.

إنها عادة قديمة على كل حال، فقد سبق لقناة فرنسية أن أعدت ما أطلقت عليه تحقيقا يكشف طرق تهريب الحشيش عبر البحر إلى الضفة «الغنية» من البحر المتوسط، وتسرد في قصتها أن بعض رجال السلطة يتواطؤون مع تجار الحشيش لتسهيل عملية التهريب. ماذا أيضا؟ الحشيش المغربي يهرّب في واضحة النهار دون محاسبة من أحد، ولأن ثمنه هبط في السوق خلال السنوات الأخيرة، فلم يبق للقناة الفرنسية في هذا التحقيق المشهود سوى أن تعلمنا كيف يزرع الكيف ويُشذب، وكيف يصل إلى أياد غير التي زرعته ورعته وفتحت صدورها لمواجهة السلطة.

استعملت القناة بعض التقنيات السينمائية والحبكة الممزوجة ببعض الموسيقى التصويرية كي توهم الجميع بأن الأمر يتعلق بتحقيق مهني غير مسبوق في تاريخ الصحافة. لكن القناة أو الصحفي الذي أنجز التحقيق -دون أي تحامل عليه- نسي أن يخبرنا ولو تلميحا، أن هؤلاء الذين يرعون هذه التجارة ويحمونها بكل الوسائل ليسوا كلهم مغاربة.. إنهم إسبان وإيطاليون وفرنسيون، ويمكن هنا أن تعود القناة بسهولة إلى التقارير التي أعدها الاتحاد الأوروبي كي تتأكد بنفسها أن الحشيش ليس على قلب واحد.

تناول القنوات العالمية -وخاصة الأوروبية منها- لملف الاتجار في «الكيف» أو زراعته بالمغرب، يكتسي لبوسا عجائبيا محبوكا بأحكام جاهزة غير صحيحة عن المزارعين والتجار، وفي الكثير من المرات كنت أتساءل: هل حقا هذه هي «كتامة» (المنطقة الأكثر شهرة لزراعة الحشيش) التي أعرف أهلها البسطاء وأشجارها المنهوبة

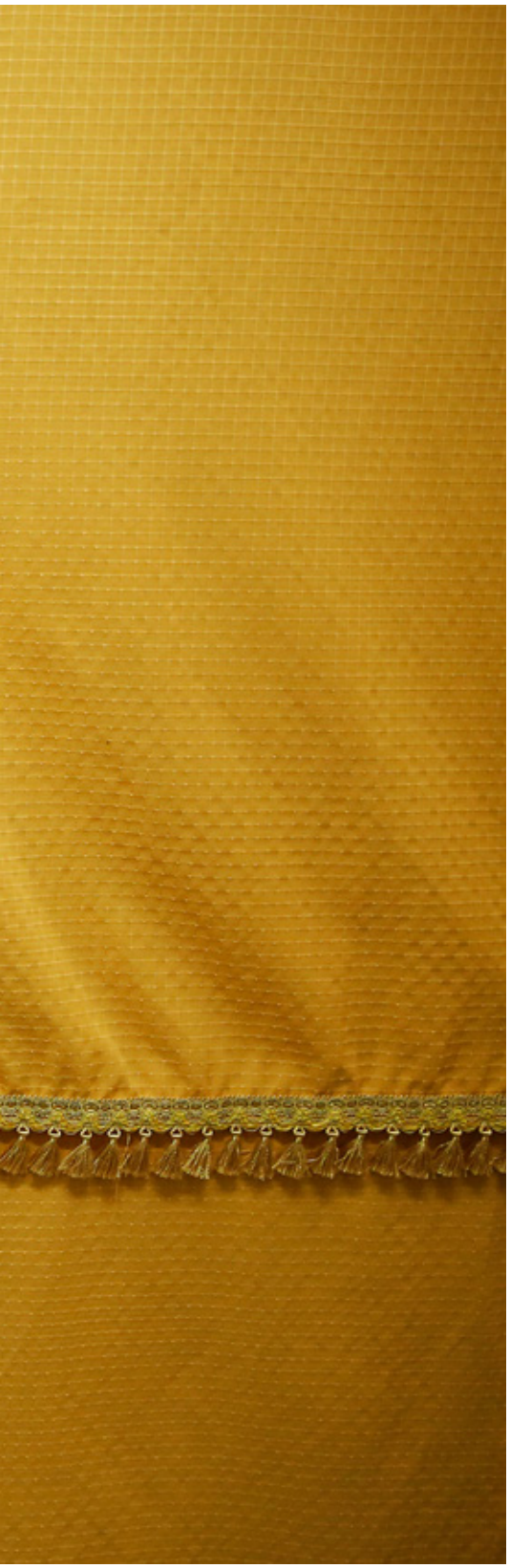

وفقراءها الذين أنهكتهم صروف الدهر؟ وهل هذه هي الشاون بجبالها الوعرة وأناسها البسطاء الراضين بعيشتهم وبقدر اسمه «الكيف»؟

رغم القرب الجغرافي بين المغرب وإسبانيا وفرنسا، ورغم العلاقات الثقافية التي تجمع هذه الدول، يصر بعض الصحفيين على اعتبار المغرب بلدا للحشيش، تستهويهم تلك النظرة الاستشراقية السطحية التي رسمها كتّاب كثر، منهم للأسف مغاربة ممن تلقى سلعتهم رواجا منقطع النظير لدى جمهور يحب القصص الخيالية.. وإلا ما معنى أن

القنوات التلفزيونية الفرنسية والإسبانية، تورطت في نشر قصص «خيالية» عن تجارة الكيف (الاسم المحلي لنبتة الحشيش) (تصوير: دامير ساجولج - رويترز).

«كنت أبحث عن لمسة إنسانية، تقترب من هؤلاء الفلاحين الذين يواجهون منذ عقود ظلم الدولة وجشع الأباطرة الكبار» (تصوير: ستيليوس ميسينا – رويترز).

يتحدث الصحفي الفرنسي عن تهريب الحشيش بين ضفتي المتوسط دون أن يشير -ولو مرة واحدة- إلى أن مواطنا فرنسيا كان وراء أخطر شبكات بيع الحشيش.

وباستثناء تحقيق يتيم لشبكة «بي.بي.سي» لم يخل هو أيضا من أحكام القيمة، لم تستفز الإعلام الغربي حال الكثير من المناطق والأقاليم المعروفة بزراعة الحشيش، ولكنه يصر كل مرة أن التجارة تدر الملايين من الدولارات على مزارعيها.

في كل فصل شتاء، تضطر الحكومة إلى فك الحصار المضروب عن المناطق التي حاصرتها الثلوج وقطعت كل أوصال الحياة فيها، وخلال هذا الوقت تكون كتامة والبلدات المجاورة خارج الحضارة لأيام. ولولا كاسحات الثلوج لظل السكان هناك في ذلك الصقع المنسي معزولين عن العالم يبحثون عن الحد الأدنى من شروط الحياة.

وقد درج الكثيرون على اتهام الفلاحين الصغار بتوسيع رقعة زراعة القنب الهندي والاغتناء الفاحش، وللأسف أيّد الإعلام الغربي هذه الصورة النمطية بدل تصحيحها.

والحقيقة أنه لو كان «الكيف» يخلق الثروة ويدر المليارات على الساكنة، لأصبح موسم الثلج موسما عاديا كما في أي دولة أوروبية، فتقرير الأمم المتحدة يتحدث عن عشرات الملايين من الدولارات تدرها زراعة الحشيش، لكنها تذهب في الأخير إلى مافيات الاتجار الدولي في المخدرات، بينما ينال الفلاحون «التهمة الأبدية».

منصة «قصّة».. عامان في الرحلة

محمد خمايسة - فاتن جباعي

«رحلة الألف ميل تبدأ بقصة».. هكذا كان حلمنا في البداية؛ أن نحكي عن الإنسان أينما كان.. كبر الحلم، وبدأنا نختبر سرديات جديدة، جربنا، نجحنا وأخفقنا، لكننا استطعنا طيلة عامين أن نقترب من مآسي وأفراح البشر، بأسلوب مكثف.. ومازلنا نختبر.

منصة «قصة» تأسست على وحدتين سرديتين: الصورة والحكاية (تصوير: روان المازح).

في قطار الأنفاق بعد ظهيرة يوم مزدحم، عامل يسند رأسه إلى عمود الوقوف، عيناه مغلقتان على تعب.. في آخر الرصيف، أب يلاعب ابنه بملاكمة وهمية.. على الركن كشك صحف صغير يحسب صاحبه رزق يومه بتعداد المارّة، وهناك أمّ تسحب أطفالها الثلاثة بعصبية إلى خارج محل للحلويات، وشاب تشي الدهشة في عينيه أنّه جديد في هذا المكان.. صور يوم عادي لأناس عاديين، يمكن أن تجد المئات منها في شارع واحد فقط كل يوم!

من هنا كانت "قصة" منصّة لسرد المغيّب عن الصحافة.. نلتقي بأناس من حول العالم.. نلمس في وجوههم "العادية" قصصا تستحق التوثيق.. نلخص تجربة كل منهم بصورة فوتوغرافية واحدة مرفقة بنصّ يسرد بإيجاز مشاعرهم وتجاربهم.

منصّة "قصة" موضوعها الإنسان والأماكن المتوارية عن أضواء الصحافة، أبطالها ليسوا خبراء أو أصحاب قضايا كبيرة، لكنّ قصصهم انعكاس غير مباشر للأحداث الكبرى. الوطن، والحب، والخوف، والقلق الشخصي، والفرح العارم.. كلها تضيع في زخم الخبر العاجل، فأرخناها بصورة ونصّ لتصبح "قصة".
في زمن الفيديو والمحتوى الرقمي السريع، هل يمكن للقصة الفوتوغرافية أن تنافس؟ أن تسرد قصة؟ عامان من الاختبار.. لكنها واعدة.

مغامرة السرديات الجديدة

كم مرة حضرت فيها حفلة موسيقية أو فعالية اجتماعية، ووجدت الناس يهتمون بتصويرها أكثر من عيش التجربة نفسها؟ ثمة هوس حقيقي لدى الإنسان بأن يشارك قصته، وثمة دائما "متابعون" ينتظرون بلهفة للاطلاع على هذه التجارب والتفاعل معها.

في كتابها "الحياة الرقمية على إنستغرام.. التواصل الاجتماعي الجديد للصور"، تشرح الباحثة في جامعة "شيفيلد" إليسا سيرافينيلي الطرق التي غيرت بها منصة إنستغرام الأساليب الاجتماعية عبر التجارب المرئية.

ومع بروز المنصات الخاصة بنشر الصور -منصة إنستغرام بشكل رئيسي- أصبح الناس يميلون إلى توثيق تجاربهم والاهتمام بنقلها إلى الناس بشكل أكبر من السابق، وفي الوقت ذاته، تولّد لديهم اهتمام أقرب إلى الهوس، بمعرفة التجارب التي عاشها الآخرون ونشروها عبر صفحاتهم الشخصية.

من هنا، كان لا بد من استغلال هذا الاهتمام المتزايد لدى الجمهور، وتحويله إلى قصص قدّرنا أنها أكثر أهمية من صورة قطة صديقك، أو صورة فنجان قهوة على إحدى الشرفات المطلة على البحر، وهي قصص الناس وتجاربهم الشخصية الإنسانية، فأخذنا الجمهور معنا في رحلة شيقة، يجوبون فيها شوارع العالم ويتعرفون على حياة الناس: طقوسهم، وفرحهم، ومعاناتهم، وتجاربهم الشخصية الفريدة.

وبينما تصارع الصحافة للانتقال إلى "العالم الجديد"، حاملة معداتها الثقيلة وخبرها اليومي المباشر إلى منصات "يتنزه" فيها الناس بخفة بين صور القطط والنكت اليومية، صار أمامها اليوم خياران لا ثالث لهما: إما الخضوع لإغراء "المليون نقرة" وما فوق، أو قرار فرض مكانة جديدة لها وسط هذه الحداثة، وهو ليس خيارا سهلا لأنه يؤسس لمغامرة ابتكار سرديات جديدة واختبارها.

منصة "قصّة" انعكاس للخيار الأخير، خيار الصحافة الرصينة التي تبحث عن موطئ قدم في منصات صممت للترفيه قبل الإعلام.

من الناس إلى الناس

منصّة "قصة" تهرب -حرفيا- من الآني والعاجل والسياسي.. حدود القصص فيها لا تحصرها الجغرافيا أو الزمن، إذ يمكن للمتصفح أن يطلع على قصص المنصّة اليوم، ويمكنه أن يعود إليها بعد عقدين أو أكثر، وسيجد قيمتها ثابتة كما هي. والسر كله يكمن في اختيار الزاوية.. الإنسان.

التنقيب عن قصص أصيلة والابتعاد عن ضجيج السبق، كانت مهمة شاقة يوم تأسيس المنصة (تصوير: عز الدين الناطور).

القصص التي تحركها التناقضات النفسية الذاتية، أو التجارب الشخصية، ليس بالضرورة أن يكون المشاهد قد عايشها، لكن قيمتها تكمن في القدرة على الارتباط معها عاطفيا.

عرفنا منذ البداية أن على الصحفي أن يتقمص أدوارا جديدة في هذه التجربة. مراسل منصة "قصة" لا يبحث عن القصص في الصحف أو المجلات أو بإجراء اتصالات "خاصة"، أي المصادر التقليدية للبحث الصحفي.. بل على العكس تماما، فالقصة هي التي تجد طريقها إلى الصحفي.. تصله وهو يتجول في سفر ما، أو يمشي في زقاق حيّه عائدا من المخبزة. بمعنى آخر، قصص "قصة" وجدت طريقها إلى المنصّة لأن جاذبية أبطالها فرضوا أنفسهم، سواءً بوجوههم أو لباسهم الفريد المعبّر، أو بالتجارب التي تميزهم وتبدو جلية على محياهم. لذا نردد في غرفة التحرير دائما: منصّة "قصة" من الناس إلى الناس. ولأن الناس لا يملكون -غالبا- الخبرة التقنية أو الحدس الصحفي لنقل القصص التي تحيط بهم، لعبنا دور الوسيط.. كانت رغبتنا أن يشعر متابع منصة "قصة" أنه يزور صفحة شخص آخر، شخص جديد كل مرة، ليستمع لقصص جديدة، ليجلس على مقربة منه وينصت له أو يحاوره.

كلّ ذلك بصورة واحدة، ونصّ مقتضب لا يتجاوز 150 كلمة، أي ما نسبته عُشر حجم النصّ التقليدي في الصحف.

خلاصات غير نهائية

باستمرار، يشعر فريق عمل منصة "قصة" بمتعة خالصة في ممارسة هذا النوع من الإنتاج. لكن الجهد الذي لا مفر منه، هو مرحلة ما بعد الإنتاج: تقييم مستمر لأداء المنصّة، نتائج، ثم قواعد جديدة للعمل. هكذا يوميا، منذ سنتين وحتى اليوم.

ما هي خلاصتنا إذا؟

ما لم نعرفه في البداية حين كنا في طور إطلاق المنصة -وهذه قصة أخرى تستحق أن تروى- هي الشروط البصرية لنجاح الصورة على وسائل التواصل الاجتماعي. ما القيمة التقنية للصورة؟ كيف نحكي قصة في صورة واحدة؟ وماذا عن النص: هل نعتمد أحادية في الموضوع، أم نقدم ملخصا شاملا عن القصة التي نعالجها؟

أسئلة كثيرة كانت دائما تحت محك الاختبار والتجربة.. نصيب ونخطئ لكننا نتعلم.

عندما انطلقت "قصة" كانت النتائج مرضية.. تفاعل ورسائل من الناس فيها الكثير من الثناء.. مرّ الوقت، وبدأنا نلاحظ أن هناك تباينا في التفاعل بين القصة والأخرى.. حينها حللنا المحتوى وتفاعل الجمهور للإجابة على سؤال: ما هي معايير القصة الصحفية المصورة الناجحة على وسائل التواصل الاجتماعي؟

بصريا، يميل الناس إلى صور الإنسان الآخر.. حتى عندما تتناول قصة بلدة أو قرية، تحظى الصورة التي تتضمن عنصرا بشريا جاذبية أعلى. نوع اللقطة (قريبة أو بعيدة أو متوسطة) لا تحدد مدى جاذبية الصورة، لكن اقتران الموضوع بنوع اللقطة مهم جدا. بمعنى آخر، حين تكون القصة خاصة وشخصية جدا، على الصورة أن تأخذ خطوات إضافية نحو الشخصية. وعندما يرتبط موضوع القصة بالحالة العامة للإنسان: ظروف حياته أو طبيعة عمله وعائلته، نأخذ خطوات إلى الخلف، ونضع الشخصية في إطارها الأوسع الذي يربط التفاصيل ويوضحها أكثر للقارئ، فالصورة لا تتحول إلى قصة إلا بشرط واحد: أن تحمل الموضوع في تفاصيلها. قصة "مَغاور الأمازيغ" مثلا، لم تكن لتقدم نفسها دون السيدة، بطلة القصة، التي تقف بلباسها الأمازيغي

التقليدي، تنظر إلى العدسة بقوة تعبّر عن المنعطفات القاسية لقريتها، كما وصفها النص المرفق.

أين تقف شخصية البطل في الصورة؟ تحدق في العدسة أم أنها ببساطة تمارس ما يفعله يوميا، مثل قصة "استخراج الذهب" أو قصة "صياد الضفادع".

الأمر مجددا يتوقف على الموضوع.. وضعية أبطالنا في الصورة تختلف باختلاف القصة. حين يحدثنا الشخص عن نفسه، نجده ينظر إلى العدسة كأنه يحاورنا بعينيه، وحين تدور قصته حول عمله، نتركه لروتينه، لنستخرج صورة تعبر عن صنعته.

القصة إذا هي المحدد الأول للصورة. أما حجم الصورة، ونوع الكاميرا، فهذه كلها معايير تتحرك في خلفية العمل.. القصة في القصة، ثم الآلة.

رحلة..

ما حاولنا فعله في "قصّة"، إضافة إلى تغيير نظرة الصحفيين للواقع، هو تغيير تجربتهم أيضا. سعينا لدفع الصحفيين إلى التوسل بمفهوم "الرحلة"، وتجربتها أثناء بحثهم عن القصص.. أن تمشي في شارع ربما زرته كثيرا، لكن هذه المرة عليك أن تعطي المجال لانطباعاتك كي تصل إلى الناس، فيشاركوك جزءا يسيرا من التجربة.. الروائح، والأصوات، وملمس الأشياء وحضورها؛ كلها تجارب لا يمكن للصورة أن تنقلها بقدر ما يمكنها أن تثير الفضول حولها، وهنا جاءت قيمة إضافة هذه التفاصيل إلى السرد، لكي تجعله أكثر حيوية وقادرا على إشراك القارئ في تلك "الرحلة".

كما أننا تجنبنا الإغراق في التفاصيل كي لا تتحول القصة إلى نص مغرق في الأدب، دون أي قيمة معرفية. ولذلك كان ضروريا إفراد جانب منها للمعلومات التي فضّلنا أن تأتي على لسان شخوص القصّة، أيّا كانت قيمتها بعيدا عن معايير الجدارة الإخبارية (Newsworthy) التي كانت السبب في إقصاء هذه القصص من الإعلام في المقام الأول.

فقصّة "مصلّح الأحذية الكوبي" الذي وجد في هذه المهنة ملاذا من مواعيد العمل المقيِّدة ووسيلة جيدة للتواصل مع الناس بشكل دائم، تمنح الجمهور مقاربة جديدة عن المهنة، بعيدا عن الصور النمطية التي ارتبطت بها، وحياة البؤس التي تخيلها البعض لمن يمتهنونها.

وفي الوقت ذاته، لم نسعَ لتجميل البؤس، فهناك مهن وظروف قاسية يمر بها كثيرون حول العالم، وصياغتنا للقصص في قالب تجميلي تجعلنا نشارك في قمع صوتهم وإضفاء لمسة "تجميلية" متعسفة على المعاناة التي يتجرعونها يوميا، فلا يمكن تجميل البؤس في قصة عمال المحاجر في جنوبي الأردن، وما يعانونه من انتهاكات لأبسط حقوقهم العمالية، لتصير الصورة ناقلة لمأساتهم وحجم الأذى الجسدي والنفسي الذي يتعرضون له، فكان سرد القصة على لسان أحدهم كفيلا بنقل جزء من واقعه.

كذلك، كان مهمّا أن نلقي نظرة على طبيعة القصص الإنسانية التي تنشر على منصات التواصل الاجتماعي، والتي وجدنا أن نسبة كبيرة منها تميل إلى صبغ القصص بطابع البؤس والمعاناة المستجدية لعواطف الجمهور، وتمنعهم من الشعور بالقصّة أكثر من مجرد شعورهم بالعجز.

الرحلة في المسير لا الوجهة

ما خلصنا إليه في هذه الرحلة الفريدة التي مررنا بها عبر أكثر من 70 دولة حول العالم، أن قصص الناس لا تنتهي من إبهارنا، ففي كل ركن من أركان هذا العالم، توجد آلاف القصص التي تستحق أن تروى، تحتاج فقط أن يتحرر الصحفيون من القوالب التقليدية التي تُبقي أصوات الناس في العتمة، وتبدأ في رحلة جديدة تمنحها حصتها العادلة؛ أن تمنحهم اسما لا رقما في الأخبار العاجلة.

وما زلنا نجوب الشوارع والمدن لأن الرحلة في المسير لا في الوجهة.

ما لم نعرفه في البداية حين كنا في طور إطلاق المنصة هي الشروط البصرية لنجاح الصورة على وسائل التواصل الاجتماعي (تصوير عمران مظهر).

كيف تدمّر الصحافة حياتك في 88 يوما؟

شفيق طبارة

بمشرط جارح ودون تجميل الواقع أو تطييب الخواطر، يناقش المخرج الأميركي كلينت إيستوود قضايا «الجنس مقابل المعلومات»، والأخبار الزائفة، وأخلاقيات المهنة التي تنتهك كل يوم.

"لتغييب العقل عليك الوصول إلى القلب"، هذا ما قاله الصحفي المخضرم في مسلسل "ذي سمبسونز" لبارت. وبارت هو ابن هومر، الذي ظهر في أحد فصول المسلسل للمشاركة في برنامج إخباري للأطفال، في قسم خاص بالتقارير العاطفية "شعب بارت". يقدم في فقرته قصصا حزينة بطريقة متعمدة عن مختلف المواطنين في سبرينغفيلد.

غالبا، استُخدمت هذه القصة والحلقة للتحذير من استغلال العاطفة المفرطة في الإعلام، والانتباه إلى أساليب التضليل المعتمدة في الصحافة، وأيضا لانتقاد البرامج والتقارير التي لا تقدم أي مضمون، فوجودها فارغ دون أي معلومات مهمة.

ويبدو أن الممثل والمخرج المخضرم كلينت إيستوود يبني حوله في السنوات الأخيرة "شعب كلينت" على غرار "شعب بارت". أفلامه الأخيرة تتألف من صور سينمائية لأبطال حقيقيين لا يُتوقع أن يصبحوا أبطالا، ويمكن أن نكون نحن أيضا في مكانهم يوما ما. ففي أحداث عديدة نُبذ هؤلاء الأبطال ورُفضوا من قبل المجتمع، وسُفهت أفعالهم بالأكاذيب والهجوم من طرف الصحافة.

من "القناص الأميركي" (2014)، إلى "سولي" (2016)، وصولا إلى فيلمه الأخير "ريتشارد جويل" (2019)، الفيلم الذي جاءت فكرته من مقال "كابوس أميركي.. قصة ريتشارد جويل" الذي كتبته ماري برينر في مجلة "فانيتي فير"، ويقدم فيه كلينت إيستوود القصة الحقيقية لريتشارد جويل (بول ووتر هوزر) حارس الأمن في "سنتينيال أولمبيك بارك".

خلال أولمبياد أتلانتا عام 1996، اكتشف حقيبة مليئة بالمتفجرات فنبّه الشرطة إلى وجودها، وأنقذ حياة كثيرين كانوا يحضرون حفلة موسيقية في تلك الليلة. لكن تحوّله إلى بطل لم يدم إلا ساعات، لأنّ صحيفة "أتلانتا جورنال كونستيتيوشن" نشرت فورًا أن البطل الذي كشف عن الحقيبة هو المشتبه به الرئيسي في مكتب التحقيقات الفدرالي.

وناهيك عن الفنيات السينمائية والنجاح السينمائي النقدي والشعبي، انغمس الفيلم في جدال يتفوق على القصة المقدمة من خلال عرض الأحداث والمعلومات التي أوردها عن دور وتأثير الصحافة في تحويل ريتشارد جويل من بطل قومي إلى متهم، والقدرة على تغيير حياته بشكل مصيري في 88 يوما فقط.

عُرض الفيلم أواخر العام 2019 وأحدث جدلا صحفيا كبيرا،

يناقش الفيلم قضية: هل كل الوسائل مشروعة للصحفي من أجل الحصول على المعلومات حتى لو كانت سرية؟ (من صفحة الفيلم على الفيسبوك).

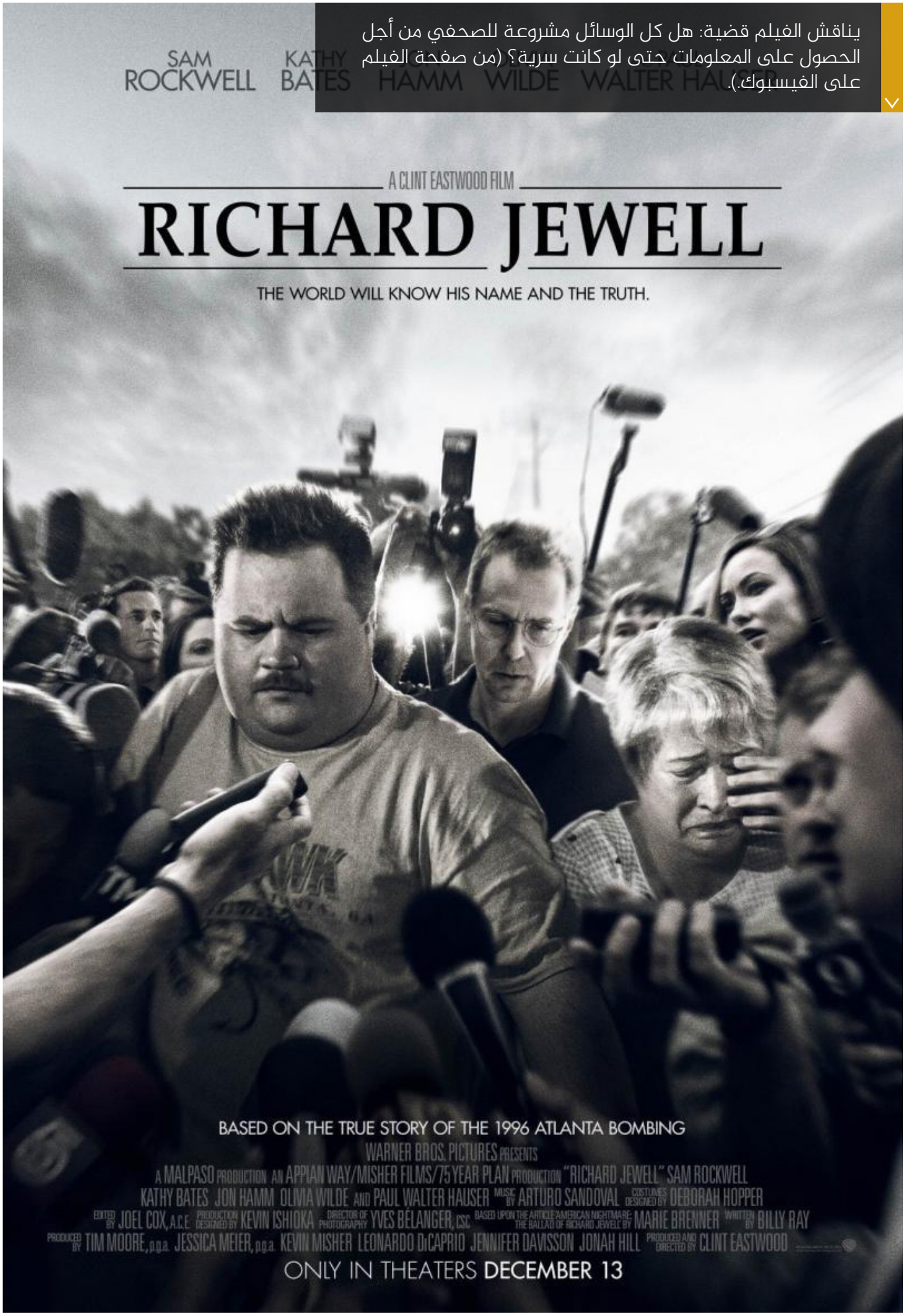

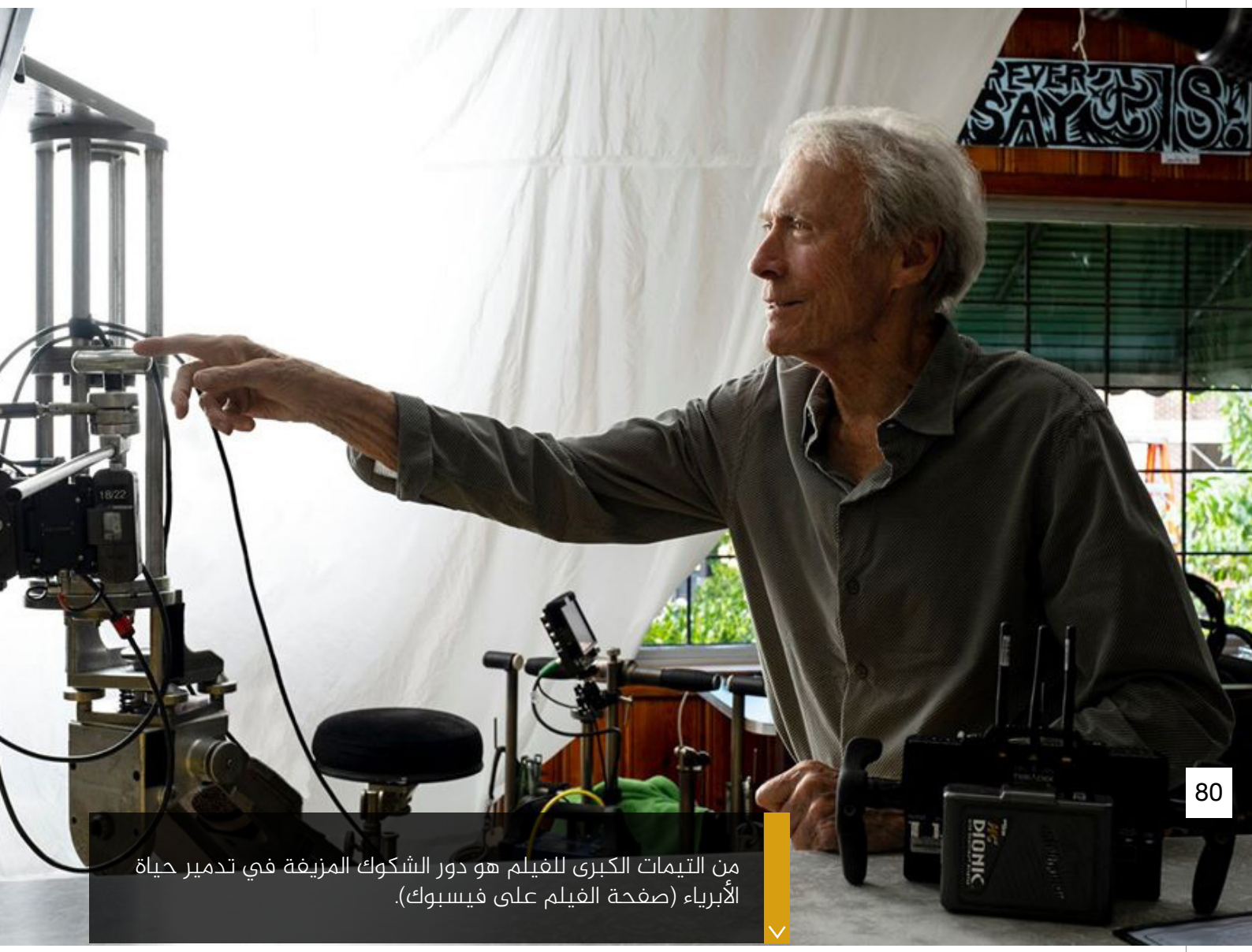

من التيمات الكبرى للفيلم هو دور الشكوك المزيفة في تدمير حياة الأبرياء (صفحة الفيلم على فيسبوك).

فجويل (33 عاما) أنقذ حياة الكثيرين، ولكن الحب الشعبي لم يدم طويلا لأنه المشتبه به الوحيد لدى مكتب التحقيقات. وعلى الرغم من أن جويل لم توجه له اتهامات قضائية، وأن الإرهابي الحقيقي اعترف بتبنيه العملية عام 2003، فإن حياة جويل دُمرت كليا عندما قررت الصحافة توجيه الاتهامات إليه، واصفةً إيّاه بالمشتبه الرئيسي في الهجوم.

بسبب علاقة بين عميل مخابراتي وصحفية، تحوّل ريتشارد جويل من بطل قومي إلى متهم دمّرت حياته.

في الفيلم تظهر صحفية لها دور رئيسي وهي كاثي سكراجز مراسلة لصحيفة "أتلانتا جورنال كونستيتيوشن" التي غطت التفجير ونشرت المعلومات الحصرية حول التحقيق مع جويل كمشتبه به. ويفترض الفيلم أن سكراجز حصلت على تلك المعلومات الحصرية مقابل علاقة جنسية مع المحقق في القضية توم شاو (جون هام)، (تم تغيير اسم المحقق في الفيلم وإبقاء اسم الصحفية كما هو).. سكراجز (لعبت دورها الممثلة أوليفيا وايلد) توفيت عام 2001 بسبب جرعة زائدة من مسكنات الألم، وهي ليست على قيد الحياة للدفاع عن نفسها أو تنفي المعلومات المذكورة في الفيلم. ولكن الصحيفة وشركة "كوكس

للنشر" أرسلتا خطابا لشركة "وارنر براذرز" ولكلينت إيستوود ولكاتب السيناريو بيلي راي، ودافعتا عن سكراجز وهاجمتا الفيلم بسبب تقديم الصحفية كشخص يستخدم العلاقات غير المشروعة للحصول على المعلومات. كما اعتبرتا أن ما قدم في الفيلم "كاذب وخبيث وضار للغاية وتشهيري".

لسنا هنا نؤكد أو ننفي كيفية حصول سكراجز على المعلومات. الأهم هو كيف استعملت هذه المعلومات، وكيف أثرت إشاعة الأخبار السرية ودمرت حياة إنسان في أيام قليلة. فهل كل السبل مشروعة للصحفي من أجل الحصول على المعلومات حتى لو كانت سرية؟ ومن يحدد للصحفي أساليب استعمالها؟ وما دور الصحافة في مثل هذه القضايا؟ وكيف تحدد المسؤولية الإعلامية وأخلاقيات المهنة وطريقة التعامل مع قضايا حساسة مثل قضية ريتشارد جويل؟

تسهل الإجابة عن بعض هذه الأسئلة والأفكار، ورغم ذلك فإن ما حصل لا يزال يتكرر حتى الآن في أغلب الأماكن. لا نتكلم هنا عن "الجنس مقابل المعلومات" (نعود إلى ذلك لاحقا)، فالحديث عن هذا الموضوع كان ليختلف كثيرا لو كان صحفي مكان الصحفية. بل نتكلم عن المسؤولية الصحفية والدور الواجب للإعلام في هذه المسائل الحساسة، خاصة أننا في عصر سهولة نشر الأخبار الزائفة.

طوّر كلينت إيستوود أفلامه بطريقة خاصة للحديث عن التاريخ الأميركي المعاصر، من خلال توظيف شخصيات يمرر عبرها الاتهامات ويكشف الفضائح داخل الثقافة الشعبية والسياسية والصحفية في أميركا والعالم. فمثلا، يعمل ريتشاد جويل على انتقاد الاضطهاد الإعلامي الذي عانى منه بطل القصة. ويتعامل الفيلم مع عدم مسؤولية الصحافة، وينتقد التخمينات التي تحولت إلى شكوك زائفة دمرت الأفراد والأبرياء.

بالكاد يخفي كلينت إيستوود غضبه، بشكل خاص على ديناميات تجسيد الشر في أفلامه وفي المجتمعات الحديثة. وهنا يتجسد الشر في الصحافة المتهالكة التي هي على استعداد لفعل كل شيء من أجل الحصول على السبق الصحفي، والتي تعمل على شكل نظام معلومات يمكن أن يدمر كل شيء دون سابق إنذار وبدون أي تفكير في العواقب. في الفيلم نرى أن الصحافة عالم مشوش هستيري يعمل كطفل متلهف وقلق، وينتظر دائما الفضائح والسبق الصحفي لإرضاء شهيته التي لا تشبع. والأهم من كل هذا، يفضح الفيلم اللعبة القذرة بين وسائل الإعلام ومكتب التحقيقات الاتحادي الذي يمكن أن يكون أي مؤسسة أمنية في أي بلد بالعالم.. هذه اللعبة موجودة دائما وتخدم الاثنين، والضحية دائما هو الفرد والأبرياء.

بالعودة إلى "الجنس مقابل المعلومات"، كثيرة هي الأفلام في هوليود التي يحصل فيها الصحفيون على المعلومات من خلال إقامة علاقة جنسية مع مصادرهم الخاصة. هذا التشويه المهني المتكرر للصحفيين في هوليود يحوي بالتأكيد شيئا من الحقيقة، ولكن المبالغة كبيرة أيضا. لا تتعب السينما والتلفاز من تغذية هذه الأسطورة، خاصة في الأربعين سنة الماضية، فمثلا فيلم المخرج سيندي بولاك الذي قدم الصحفية ميغان (سالي فيلد) بأنها تقيم علاقة مع مصدرها مايكل (بول نيومان) في فيلم "غياب الحقد" (1981). ويتحدث الفيلم عن التشهير ويستخدم الصحافة وأخلاقيات المهنة لتوضيح التعارض بين الكشف عن المعلومات الشخصية وحق الجمهور في المعرفة.

زوي بارنز (كيت مارا) تعتمد الطريقة ذاتها مع عواقب وخيمة في مسلسل "هاوس أوف كاردز"، وهيثر هولوواي (كاتي هولمز) في "شكرا للتدخين" (2005) المحترفة التي سقطت أيضا في قالب "الصحفية العاهرة" وانتهى بها المطاف في السرير مع أحد مخبريها للحصول على تقرير. هذا الخيال السينمائي يتم شجبه من قبل الكثيرين ويربطونه بتلك الرؤية الكارهة للنساء، ولربط الجنس كشرط لا بد منه من أجل المجد الإعلامي. وهذا بالتحديد كتبت عنه سوفي غيلبرت عام 2018 في مقالها بمجلة "ذي أتلانتك"

في الفيلم تبرز الصحافة مثل عالم هيستيري متعطش للفضائح والسبق الصحافي (صفحة الفيلم على فيسبوك).

بعنوان "المجاز الكسول لصحفية غير أخلاقية". جمعت غيلبرت في نصها رؤية سارة لونسديل وكتابها "الصحفي في الخيال البريطاني والأفلام" (2016)، وشرحت كيف أن التمثيل الثقافي السلبي للنساء سيتزايد ويقدمهن ضمن القوالب النمطية كلما ازداد عددهن في الصحافة وحققن وظائف عالية.

تنتقد هذه الإنتاجات السينمائية الإعلام والصحفيين بطريقة بناءة، إلا أنها في الوقت نفسه تجعل الشخصيات النسائية العاملة في المجال الصحفي تبدو على مستوى أقل من الرجال في كيفية الحصول على المعلومات، إذ عليها أن تستعمل الجنس إن أرادت تحقيق النجاح كالرجل.

وبالعودة إلى الفيلم، فإن مهارة كلينت إيستوود السينمائية لا جدال فيها، فالنقد السياسي والاجتماعي والمهني دائما ما يكون مرتفعا، والمخرج ينتقد دائما العدو الداخلي، لا يجمل الواقع ولا يطيّب الخواطر. وفي فيلمه الأخير كان نقده شديدا للصحافة والصحفيين، وأرانا بأعيننا كيف يمكن لخبر صغير ينتقل من شخص ذي سلطة إلى أحد الإعلاميين، أن يخرب حياة أي شخص.

بغض النظر عن كيفية حصول سكراجز على المعلومات، فإن إدانتها تأتي من طريقة تعاملها مع هذه المعلومات، واستغلالها للشهرة الصحفية، دون الاكتراث للمسؤولية الصحفية وأخلاقيات المهنة، والتي أوصلتها إلى تدمير حياة إنسان دون التفكير في العواقب.

ما شاهدناه في فيلم "ريتشارد جويل" نشاهده كل يوم في الصحافة ووسائل الإعلام، فالأخبار الزائفة في كل مكان، والتشهير بالأشخاص بات سهلا جدا في عصر الإعلام الرقمي، وأيضا اللحاق بالأضواء والشهرة الافتراضية على حساب المعلومات والمسؤولية المهنية. كلينت إيستوود يحث الجميع على التحلي بالمسؤولية، والتفكير من خلال العمل الذي نؤديه وخاصة الصحافة، في نتائج ما نكتبه أو ما ننشره وما نعيد نشره.

الحب والفقدان في زمن الثورة

ينشر بالتعاون مع دار بينغوين للنشر عن كتاب «صحفياتنا في الميدان».

ندى بكري

انتهت المغامرة الصحفية على ظهر خيل.. داهمه الموت وهو يحاول عبور الحدود التركية السورية. ندى بكري تسرد قصة تمتزج فيها لحظات الفرح والمأساة لزوجها الذي خاطر بحياته بحثا عن الحقيقة.

كان يوما باردا رطبا من أيام فبراير/شباط 2012، حين هبطت طائرتنا أنا وابني مالك في أضنة جنوبي تركيا. كانت رحلتنا من بيروت طويلة، ولا تزال أمامنا ساعتان من السفر على الطريق حتى نصل أنطاكيا الخلابة الواقعة قرب الحدود السورية، حيث سنلتقي أنتوني شديد، زوجي ووالد مالك.

حين ركبنا سيارة الأجرة، كان الظلام قد أرخى سدوله على كل شيء، ورغم إضاءة الشوارع الليلية، فقد كان عسيرًا على المرء أن يحدد ملامح المشاهد الطبيعية التي يمر بها. قال مالك مصفقا بيديه من فرط الحماس: "أخيرًا سنرى أبي".. شعرت بوخزة في صدري، فقد كنت أشك أن يصل أنتوني إلى أنطاكيا قبل صباح الغد، ولم أرد أن يشعر مالك ذو العشرين شهرًا، بالإحباط عندما نصل إلى الفندق ولا يجد والده هناك.

كان أنتوني أخبرني عبر الهاتف أنه سيتصل بي فقط حين يشعر أنه آمن تماما ليفعل ذلك. دخل سوريا بطريقة غير شرعية من الحدود الجنوبية لتركيا، ليجري مقابلات مع مقاتلي المعارضة المسلحة والنشطاء لصالح صحيفة "نيويورك تايمز". يسهل تعقب الهواتف المحمولة، ولذلك أراد توخي الحذر والابتعاد عنها قدر إمكانه.

لكن شاءت الأقدار ألا نرى أنا ومالك أنتوني مجددًا!

ما حدث في تلك الليلة غيّر حياتي على نحو لم أكن لأتوقعه مطلقا. فحتى ذلك اليوم، كنت أعمل في بيروت مراسلة متخصصة في تغطية شؤون لبنان والشرق الأوسط لما يقرب من عقد من الزمان.. كانت تلك بعض أسعد سنوات حياتي.. أحببت عملي مراسلة، وكنت أعتزّ به، وتزوجت الرجل الذي أحبّ وأصبحت أمًا.

في تلك الليلة بأنطاكيا، أمسيتُ أرملة..

لا أتذكر تحديدًا متى أدركتُ أني أريد أن أعمل صحفية، لكني أعتقد أن ذلك كان في مرحلة المدرسة الثانوية. ولأكون صادقة تماما، انطوى هذا القرار على بعض من الغرور، فقد راودتني متعة تغطية الأحداث الكبرى والرضا المنبعث عن معرفتي بأن الناس يقرؤون ما أكتبه ويستمعون لما أقوله.

لكن دافعي الحقيقي نبع من نشأتي.. ترعرعت في لبنان، البلد الذي ظل دائما في حرب مع نفسه، ونشأتُ في عائلة مولعة بالسياسة.. لم أشهد أيًا من المعارك الحامية التي دارت رحاها في شوارع بيروت خلال الثمانينيات، ولا أتذكر الغزو الإسرائيلي عام 1982، ولا المذبحة الوحشية المعروفة في مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين في ضواحي المدينة بعدها بأشهر قليلة، لكني سمعت عن تلك الأحداث ما يكفي لتأليف كتاب عنها.

أتذكّر أصوات وروائح الحرب والخوف.. أتذكّر انزوائي مع إخوتي ووالدتي في مخبأ مؤقت، وهو رواق في شقتنا، احتماءً من قتال نشب في إحدى ليالي 1990، قريبًا من منزلنا. وأتذكر أيضًا الصوت المرعب للمقاتلات الإسرائيلية قبل أن تغير بقنابلها.

شارعنا الذي تقع فيه عمارتنا السكنية بالعاصمة بيروت كان

«التقيتُ أنتوني أول مرة في سبتمبر/أيلول 2006 بعد فترة قصيرة من حرب تموز، أثناء مهرجان جماهيري لحزب الله في الضاحية الجنوبية». (رويترز).

مغلقا في أحد طرفيه بتلة من الأكياس الرملية.. تسلقتُه ذات مرة مع أمي للوصول إلى بيت جدتي القريب.. سرنا في الشوارع التي ضاقت بحطام الأبنية المقصوفة، وتجنبنا أماكن عرفت بأنها نقاط ساخنة للقناصة الذين يستهدفون المشاة عشوائيًا. انتهت الحرب الأهلية اللبنانية رسميا عام 1991، لمّا شرّع البرلمان قانونا للعفو عن جميع المتورطين في جرائم الحرب، ما عدا اثنين، ونزع سلاح كل الميليشيات. بالإضافة إلى اتفاق توسط فيه العرب بين الفصائل السياسية اللبنانية المتصارعة، شدد على أهمية العيش المشترك بين الطوائف الثماني عشرة المعترف بها في المجتمعات المسلمة والمسيحية بلبنان، وأعاد الاتفاق هيكلة تمثيلها السياسي.

لكن، رغم أن هذا الاتفاق جلب قدرًا من السلام والاستقرار إلى لبنان، فإنه لم يشفِ جروح الحرب، وظلّ البلد واقفا على شفا هاوية من الانقسامات العميقة التي لم تلتئم.

وبحلول المرحلة الذي تخرجت فيه من الجامعة الأميركية في بيروت ربيع العام 2002، كنت قد عايشت عقدا من المناوشات

المتقطعة بين المليشيات المسلمة والمسيحية اللبنانية وحلفائهما الخارجيين. وخلال تلك الفترة أيضا، وقعت أحداث إقليمية ودولية كبرى، منها حرب الخليج الثانية في العراق، وهجمات 11 سبتمبر/أيلول 2001 التي استهدفت مركز التجارة العالمي، والحرب على أفغانستان. وظل الصراع العربي الإسرائيلي كما هو دائما، موضوعا ساخنا يحتل المركز أحيانا، ويبتعد إلى الهامش أحيانا أخرى.

بعدها بسنوات قليلة، وتحديدا في 2007، وجدت نفسي في بيروت مجددًا، هذه المرة بوصفي مراسلة.. كانت الشوارع مزدحمة بحطام المباني كما كان الحال في طفولتي تماما. الاضطرابات الجديدة بدأت باغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري في فبراير/شباط 2005، باستخدام سيارة متفجرة.. ألقيَتْ تهمة اغتياله على سوريا وحلفائها في لبنان، وانقسمت البلاد إلى معسكرين: أحدهما شيعي مدعوم من سوريا وإيران ويقوده حزب الله، والآخر سني مدعوم من الغرب ويقوده أنصار الحريري.

وانقسم المسيحيون بين المعسكرين.. كانت النتيجة 17 شهرا من الجمود السياسي، وسلسلة من الاغتيالات السياسية المتعاقبة، ثم اندلعت الجولة الأولى من القتال يوم 23 يناير/كانون الثاني 2007. في ذلك اليوم، تحولت مظاهرة سلمية إلى مظاهرة عنيفة، حين أغلق أنصار حزب الله الطرق المؤدية إلى بيروت بالسيارات والإطارات المحترقة، واصطدموا مع أنصار الحكومة السنية.

في ذلك الوقت كنت مراسلة لصحيفة لبنانية تصدر باللغة الإنجليزية تسمى "ديلي ستار"، ومراسلة محلية لصحيفة "نيويورك تايمز".

سمعت تقارير في ذلك الصباح عن رجال بأقنعة سوداء يلوحون بالهراوات ويغلقون الطريق من وإلى مطار رفيق الحريري، المطار المدني الوحيد في لبنان. وصلت إلى هناك على ظهر دراجة نارية يقودها صديق قديم في منتصف الخمسينيات من العمر، من أنصار حزب الله، يسمى أبا علي، وقد شارك في الحرب الأهلية.

حين وصلت كان المشهد متوترًا.. توسّل المسافرون إلى المتظاهرين للسماح لهم بالخروج من المطار أو دخوله.. ملأ السماءَ دخان أسود، وألقى شباب بالإطارات المطاطية والقمامة في النيران ليزيدوها اشتعالا. تقدمتُ إلى مجموعة من المتظاهرين وعرّفت بنفسي، وسألت عن سبب ثورتهم.. أثناء استماعي وتدويني للملاحظات، هاجمني رجل فجأة محاولا اختطاف مذكرتي، لكنّي كنتُ أسرع منه وسحبتها ناحيتي وهرعت إلى أبي علي الذي كان على مقربة مني موليًا ظهره لي.. طاردني الرجل وبعض المتظاهرين الآخرين، لكن ما إن بدأت بمناداة أبي علي أدركوا أني قدِمتُ معه، فتركوني وشأني مع مذكرتي.. لولاه، لا أدري ما الذي كان يمكن أن يحدث لي في ذلك اليوم.

بعد أشهر قليلة، أثناء الجنازة التي أقيمت لضحايا الجولة الأخيرة من الاشتباكات، نشب شجار بين مصور صحفي أجنبي صديق لي وأحد المشاركين في العزاء بسبب الصور التي التقطها. وبما أنه لا أحد منهما يفهم لغة الآخر، فقد هرعت إليهما للمساعدة في حل المشكلة.. تصاعدت حدة الموقف سريعا بسبب تدخل المزيد من المشاركين، ودُفعتُ بعنف.. لا أذكر كيف انتهى الشجار، لكني أتذكّر كيف بكيتُ حين انزويت وحيدة.. لم أبكِ لأني خفت على حياتي، بل لأني شعرت بالضعف الشديد وعدم قدرتي على حماية نفسي لأنني امرأة.

وبقدر حبي لعملي، كانت هناك مرات كثيرة بين عامي 2005 و2008 تمنيتُ فيها لو كنت شخصا آخر، أو في مكان آخر.. بحثتُ مرة عن رقم هاتف شخص ما في مفكرة الهاتف لديّ.. كان هذا الشخص هو سمير قصير الكاتب الصحفي المشهور والناقد اللاذع لسوريا، والذي قتل في يونيو/حزيران 2005 في انفجار لسيارة أمام منزله.. بحثت عنه في مفكرتي، وعندما لاحظتُ أني كتبتُ أمام اسمه ما يدلّ على أنه فقد حياته، عدَدتُ ثمانية رجال آخرين، سياسيين ونشطاء، أجريت معهم مقابلات عدة مرات، قُتلوا خلال عامين

استهدف الانفجار فندق الحمراء الواقع في الناحية الأخرى من الشارع الذي يضم مقر صحيفة «واشنطن بوست»، ومنازل الكثير من أصدقائنا وزملائنا.. كنا على مسافة ميل فقط. (تصوير: محمد عزاقير - رويترز).

فقط، وبدأت أشعرُ بأثر الصراع يحاصرني.

ثم في مايو/أيار 2008، واجهتُ الموت عيانًا..

كانت حكومة رئيس الوزراء اللبناني فؤاد السنيورة -المدعومة من الغرب- قد اكتشفت حينها شبكة اتصالات خاصة يستخدمها حزب الله.. وكان الحزب قد حارب إسرائيل في يوليو/تموز 2006 حربا غير متكافئة دمرت لبنان، وعُرفت محليا باسم "حرب تموز". اعتبر الحزب الشبكة جزءًا حيويًا في مقاومته لإسرائيل (ينسب لحزب الله فضل تحرير جنوب لبنان ذي الغالبية الشيعية من الاحتلال الإسرائيلي منذ العام 1982 حتى العام 2000).

أعلن السنيورة اتخاذ خطوات لتفكيك الشبكة لأنها تمثل خرقا لسيادة حكومته، واشتعل حزب الله غضبًا.

في 8 مايو/أيار من ذلك العام، قال زعيم الحزب حسن نصر الله إن تصريح الحكومة يمثل "إعلان حرب".. لم يتخيل أحد حتى تلك اللحظة أن حزب الله سيستخدم سلاحه محليًا، لكن غير المتخيَّل قد حدث.

في مشاهد تذكّر بالحرب الأهلية، امتلأت شوارع بيروت برجال مدججين بالرشاشات الآلية يتحاربون فيما بينهم، واتخذ القناصة مواقعهم، وفاضت الأحياء بالسيارات المحروقة والحطام. لكن أنصار الحكومة لم يكونوا أندادا لقوة حزب الله العسكرية، فانسحبوا سريعا.. خلّفت أيام الاشتباكات الثلاثة 11 قتيلا و19 مصابا.

في يوم السبت 10 مايو/أيار، ذهبت مع زميلي رائد الرافعي الذي كان يعمل حينها لدى صحيفة "لوس أنجلوس تايمز"، لتغطية جنازة رجل سني شاب قُتل برصاص قناص قبلها بيومين.

كان مشهدا عاطفيا آخر مشحونًا استُخدمت فيه الشعارات الطائفية لتأجيج العنف. تعهد المعزّون السُّنة بالانتقام من الشيعة، ووصفوا حزب الله بعدوّ الله. وحين اقتربت الجنازة من متجر يملكه رجل شيعي، طالبه المعزون بإغلاق متجره، لكنه

رفض، فحطموا نوافذه بالحجارة والكراسي، فردّ عليهم بإطلاق النار على الجنازة.. سارعتُ فورًا إلى الانزواء، واختبأتُ خلف حاوية للنفايات.

كان رائد يسير بجانبي، وحين بدأ إطلاق النار، اختبأ هو أيضاً، وحين هدأت الأمور خرجتُ من مخبئي ورأيتُ الرجلين اللذين كانا يقفان بجانبي قبل لحظات معدودة غارقيْن في بركة من دمائهما.. وقف رائد فوق جسد أحدهما بكاميرا جيب مدمجة.. نجونا كلانا، لكنهما لم ينجوَا.. كان اسمهما عليّ (23 عاما) وموسى (24 عاما).

تسللتُ لاحقا إلى المستشفى الذي استقبل جثماني الشابين.. وجدت محمد والد علي راقدًا على سرير في غرفة الطوارئ.. كان قد سمع عن إصابة ابنه فغاب عن الوعي وجلبوه إلى المستشفى نفسه.. رجاني منتحبًا "أخبريني ما الذي حدث لعلي.. قلبي يُخبرني أنه ميت.. قلب الأب دليله.. مات، لا تقولي لي إنه لم يمت.. أعرف أنه ميت.. علي، ابني، هل تسمعني؟".. سحب صورة لولده من محفظته وقبّلها قائلا "أجبني يا علي، هل متّ؟ لا تمت أرجوك".

خرجتُ من الغرفة حين عجزتُ عن حبس دموعي.. خرجت وحاولت لملمة نفسي.. حين عدت إلى المستشفى، رأيت والدة علي.. قالت "عليّ هنا"، مشيرة إلى اتجاه المشرحة.. "أريد البقاء هنا.. أخبرَني هذا الصباح أنه يريد أن ينام أكثر.. والآن سينام للأبد".

كان عليٌّ غريبًا عني تمامًا، لكني ما زلتُ لا أستطيع نسيان ذكرى ذلك اليوم، والمشاعر التي أحدثها فيّ موتُه.

التقيتُ أنتوني أول مرة في سبتمبر/أيلول 2006 بعد فترة قصيرة من حرب تموز، أثناء مهرجان جماهيري لحزب الله في الضاحية الجنوبية، للاحتفال بنصره "الرباني" على إسرائيل. ولأنهم تمكنوا من الصمود لمدة 33 يوما، اعتبر الكثيرون من أنصار الحزب المعركة نصرًا، رغم مقتل 1200 مدني لبناني، وتدمير قرى كاملة في جنوب البلاد تحت وطأة القصف الجوي، وتعرّض كل الجسور والطرق السريعة الرئيسية للقصف.

كنت قد قرأت تغطية أنتوني لشؤون الشرق الأوسط، ابتداء

استيقظتُ بعد منتصف الليل على وقع هاتفي المحمول. كانت المتصلة هي المحررة التنفيذية لنيويورك تايمز وأخبرتني أن «أنتوني أصابته نوبة ربو قاتلة وهو يحاول العبور لسوريا» (تصوير: محمد عزاقير - رويترز).

من الغزو الأميركي للعراق عام 2003، بإعجاب شديد. لذا، حين اتصل وطلب مني الخروج في موعد عاطفي بعد أيام من المؤتمر، ساورتني دهشة ممزوجة بالسعادة. في موعدنا الثاني، شاهدنا فيلمًا، ثم في الموعد الثالث أحسستُ أني مع صديق قديم أكثر من كونه موعدًا عاطفيًا، وهكذا أصبحنا أصدقاء.

لكن بعدها بستة أشهر، أرسل لي يطلب أن نلتقي في موعد جديد.. أتذكر أني سألته متحيرة "ما الذي تقصده؟".. أجابني قائلا "أخبرتني في موعدنا الأول أنك مرتاحة أكثر لمواعدة شخص تجمعك به صداقة، لذا رغبت في أن أكون صديقك أوّلا".

بحلول نهاية مايو/أيار، كنت قد نلتُ كفايتي من بيروت ومظاهراتها وقنابلها وقتالات الشوارع فيه ومشاحناتها السياسية التي لا تنتهي. مثل دخان الإطارات المحترقة السام الذي كبّل رئتي، أصبح الصراع خانقا لحالتي النفسية.. قررت الابتعاد قليلا والتسجيل بكلية الدراسات العليا في الصحافة بجامعة كولومبيا في مدينة نيويورك.. راودتني فكرة الدراسات العليا كثيرًا منذ تخرجي من الجامعة، لكني لم أشعر بأني جاهزة للعودة إلى الدراسة حتى ذلك الربيع.

صرتُ في حياة جديدة اشتبكتُ فيها كليًا مع أنتوني: سعيدة وغارقة في الحب، وحين حان موعد مغادرتي، طلب أنتوني يدي، ووافقت.

في يونيو/حزيران 2009، بعد تخرجي من جامعة كولومبيا، انتقلت إلى بغداد للعمل مراسلة لصحيفة "واشنطن بوست".. زوجي أنتوني كان رئيس المكتب.. كان زواجنا قد دام عاماً، لكننا لم نعش معا في مدينة واحدة حتى ذلك الوقت.

زرت العراق من قبل في ديسمبر/كانون الأول 2002، قبل ثلاثة أشهر من الغزو الأميركي، لكن البلاد تغيرت كثيرًا منذ ذلك الحين.

وكما وصفها أنتوني في "واشنطن بوست" عام 2009، "انتهت حرب العراق بالفعل، أو على الأقل الصراع كما عرفناه في السنوات الخمس الأولى للحرب، بما فيها من تمرد وتطهير عرقي وحروب عصابات وفوضى، ومهمة النجاة المستحيلة، أي بعبارة أخرى، الحرب الأهلية، رغم أن مصطلح الحرب الأهلية لا يسعه وصف ما حدث هناك".

لكن الوضع على الأرض كان معقّدًا.. كنت قلقة من وظيفتي الجديدة، وكنت على وشك العمل مع أنتوني الذي عُرف بأنه أنجح مراسل أجنبي يغطي شؤون الشرق الأوسط.

مصدر قلقي يرجع إلى القصص التي سأكتبها والتي سأفوتها، وإن كان أحد سيقرأ شيئا مما أكتب على الإطلاق.. لم تكن ترتيبات معيشتنا مثالية، بما أننا اضطررنا للعمل والسكنى في مكان يمثل المكتب والمنزل لطاقم عمل الصحيفة المحليين والأجانب.

كان أنتوني شريكا رائعا في الزواج وفي العمل.. شكّلنا فريقا رائعا، واعتمدت عليه لفهم تعقيدات العراق. ومعًا كنا نفكر في الأفكار ونخطط لرحلات التقارير، وبحثنا عن أفضل ترجمات للتصريحات من العربية إلى الإنجليزية.. إذا سهرتُ لأجل العمل على تقرير، كان يسهر معي حتى أنهيه، ولم يقدم أيٌّ منا يومًا تقريرًا قبل أن يقرأه الآخر.

كانت غرفة نومنا في الطابق الثاني مطلة على حديقة من الأشجار، وقد زيّنا أسوارها باللوحات، ووضعنا بعض الصور في إطارات، وفرشنا سجادة فارسية عتيقة.. بدت كمنزل مليء بالدفء.

في الليالي الهادئة، كنا نشاهد حلقات من مسلسلات تلفزيونية أميركية ونحن نأكل المثلجات. كان مسلسل "Desperate Housewives" يعرض في تلك الآونة، واستغرق تنزيل حلقة واحدة يوما كاملا بسبب اتصال الإنترنت الضعيف. لكن الأمر كان يستحق العناء، لأن هذه المتع البسيطة مثل مشاهدة حلقة من مسلسل تلفزيوني كل أسبوع، منحت حياتنا إحساسا بالاعتيادية والروتين.

في بعض المرات، خرجنا في ليال غرامية.. في إحدى المرات، صادفنا مطعما صغيرا يسمى "الريف" في حي راقٍ

ببغداد، حيث يعزف فيه رجل مزيجا من الألحان الشرقية والغربية على البيانو كل ليلة.. تظل هذه واحدة من أجمل ذكرياتي عن الحياة في بغداد التي يندر فيها وجود العازفين والموسيقى.

استيقظت في أحد أيام أغسطس/آب وأنا أشعر بالدوار.. سرنا أنا وأنتوني إلى صيدلية صغيرة وطلبنا أداة لاختبار الحمل منزليًا.. نظر إلينا البائع باستهجان، وعرفتُ أنه افترض أننا غير متزوجين.. كانت العلبة بدولارين تقريبًا، وقد كُتب عليها "صنع في سوريا" بحروف عربية كبيرة.

اصطحبني زميل عراقي مرة لزيارة زوجته طبيبة النساء لإجراء فحص روتيني في الثلث الأول من الحمل.. احتارت الطبيبة في سبب اختياري البقاء في بغداد رغم قدرتي على تمضية فترة الحمل في بيئة أكثر أمنا وسلامة في الخارج.. أخبرتها أن النساء العراقيات يلدن أطفالا أصحاء كل يوم، فردت قائلة "هنّ لا يملكن الخيار".. طلبتْ مني إجراء فحص بالأشعة فوق الصوتية، ورغم أن كل شيء كان على ما يرام، أخبرتني بأن أقضي بقية فترة الحمل في السرير لأتجنب الإجهاض.. شككت في أنها تحاول إقناعي بالمغادرة، فتجاهلت نصيحتها ولم أرَها بعدها.

فكرتُ فيها مجددًا حين تعرضتُ لحادث سيارة في الشهر الخامس من الحمل.. انزلقتْ سيارتي حين حاولت تهدئة سرعتها قبل منعطف حاد.. كان الطريق زلقًا وخرجتْ السيارة عن السيطرة وانقلبت وحطت على سقفها، وخرجتُ منها سالمة، لم أَصَبْ بأذى.

في يناير/كانون الثاني 2010، انفجرت ثلاث سيارات مفخخة واحدة تلو الأخرى في ثلاثة أحياء منفصلة من المدينة.. استهدفت الهجمات فنادق تستضيف على الدوام مراسلين أجانب ورجال أعمال. وقع الانفجار الثالث في الساعة 3:37 مساءً من يوم 25 يناير وكان قريبًا من منزلنا بما يكفي ليهشّم الكثير من نوافذه.

استهدف الانفجار فندق الحمراء الواقع في الناحية الأخرى من الشارع الذي يضم مقر صحيفة "واشنطن بوست"، ومنازل الكثير من أصدقائنا وزملائنا.. كنا أنا وأنتوني قد غادرنا الصحيفة في ديسمبر/كانون الأول، وانضممنا إلى مكتب "نيويورك تايمز" في بغداد.. كنا نعيش على مسافة ميل من المكان، وكنتُ قد بلغت الشهر السابع من الحمل في ذلك اليوم. وللمرة الأولى منذ الانفجار الذي أودى بحياة الحريري في بيروت عام 2005، لم أرغب في الذهاب إلى موقع الانفجار.. في تلك اللحظة شعرت بالتزام أكبر تجاه الأمومة من أي قصة صحفية إخبارية مهما بلغت أهميتها.

بحلول نهاية العام 2010، كنت أعيش مع أنتوني وابننا مالك في بيروت، حيث شغل أنتوني منصب مدير مكتب "نيويورك تايمز"، وعملت أنا مراسلة..

كان الوضع هناك وفي العالم العربي في العموم -باستثناء العراق- مستقرًا.

لكن في 17 ديسمبر/كانون الأول 2010، أحرق بائع فاكهة شابٌّ نفسَه في قرية تونسية احتجاجًا على شجار وقع بينه وبين الشرطة المحلية.. أشعلت هذه الحادثة مظاهرات صورت في مقطع فيديو وشاهدها الملايين حول العالم، وسرعان

ما اندلعت ثورة شعبية. وإثرها بـ28 يوما، تنحى الرئيس زين العابدين بن علي بعد 23 عاما قضاها في السلطة.

ثم توالت المظاهرات في مصر وليبيا والبحرين واليمن وسوريا.. قبل هذه الثورات الشعبية، عاشت معظم الدول العربية في ظل حكم أنظمة قمعية قيدت الحريات وانتهكت حقوق الإنسان.

في يناير/كانون الثاني 2011، اتصل بي أنتوني من ميدان التحرير في القاهرة، حيث كُلف من قبل "نيويورك تايمز" بتغطية الأحداث هناك.. أراد مني أن أسمع معه احتفالات المتظاهرين بنبأ سقوط نظام الرئيس مبارك.. كنتُ في بيروت وأراد مشاركتي هذه اللحظة الأسطورية في تاريخ العالم العربي.. لم يصدق كثيرون -بينهم أنا وأنتوني- أن هذا يحدث فعلا.

في غمرة الأمل التي أثارها نجاح الثورات في تونس ومصر، بادر النشطاء في سوريا إلى دعوة الناس على مواقع التواصل الاجتماعي للنزول إلى الشوارع في دمشق في يوم الغضب ضد حكومة بشار الأسد. كان الأسد قد ورث السلطة عام 2000 عن أبيه حافظ الأسد الذي حكم سوريا بقبضة من حديد لثلاثة عقود.

كتب الروائي الإسباني خافيير مارياس في روايته «الولع» عن الموت قائلا إن صعوبة تجاوزه تكمن في صعوبة تقبّل نهائيته.
(تصوير: أوميت بكتاش - رويترز).

سافرتُ إلى دمشق بالسيارة يوم 4 فبراير/شباط 2011 لتغطية أي مظاهرات محتملة لصالح "نيويورك تايمز"، وتوجهت إلى مبنى البرلمان الذي كان مقررًا أن تنطلق المظاهرات من أمامه، لكن لم يظهر أحد.. أخبرني نشطاء سياسيون ومعارضون في وقت لاحق من ذلك اليوم أن "سوريا آخرُ دولة قد تشهد تغييرًا في النظام الحاكم".

زرت سوريا مجددا في سبتمبر/أيلول مع أصدقاء وزملاء سوريين كانوا يعملون ويعيشون في بيروت. بحلول ذلك الوقت كان عدد القتلى قد زاد عن 2600 منذ الانتفاضة التي اندلعت أخيرًا في مارس/آذار بمدينة درعا الجنوبية التي تعاني الفقر والتهميش. لم تكن العاصمة قد شهدت أي اضطرابات بعد، لكن المزاج العام كان متعكرًا، وخشي الكثيرون من أن محاولة الإطاحة بالأسد قد تتحول إلى حرب أهلية تطلق العنان لصراع طائفي في بلد تعايشت فيه الأقليات الدينية والعرقية لمدة طويلة من الزمن.

وصلت الثورة السورية عامها السابع في مارس/آذار 2018، وسقط مئات الآلاف من القتلى، ولا يزال النظام متعنتًا كما كان دومًا.

لم تكن سوريا الدولة الوحيدة التي فشلت الثورة الشعبية بها في تحقيق أهدافها، فرغم الدماء التي سالت، تمكّنت العديد من الأنظمة من النجاة.. بعض الحكام طبقوا إصلاحات متواضعة، في حين أسكت آخرون المعارضة بالقوة. سقط حكام اليمن وليبيا، لكن البلاد دخلت في دوامة من الفوضى، واعتلت حكومة عسكرية مستبدة سدة الحكم في مصر، وما تزال سوريا تشهد قتالا يوميًا.

في بعض الأحيان، أفكّر في موت أنتوني على أنه نتيجة غير مباشرة للثورات العربية. كذلك كان الأسبوع الذي قضاه في الأسر بليبيا في مارس/آذار 2011.. أوقِفَتْ سيارته في نقطة تفتيش عسكرية تابعة للقوات الموالية للزعيم الليبي حينها العقيد معمر القذافي.. اعتُقل هو وثلاثة زملاء له في الصحيفة أثناء سفرهم على الخط الساحلي في شرقي ليبيا، وظلوا في الأسر قرابة أسبوع.. كنتُ في بيروت مع مالك في ذلك الوقت، ولأربعة أيام لم يعرف أحد شيئا عن مصيرهم.

قال أنتوني لاحقا إن الجندي المسؤول أراد إعدامهم في المكان، وأخبرني أنه اعتقد حقًا أنه لن ينجو من ذلك الموقف، لكنهم أرسِلوا بدلا من ذلك إلى مركز احتجاز في طرابلس، تابع لوزارة الخارجية. أطلقت الوزارة سراحهم بعد ستة أيام من احتجازهم وسلمتهم إلى دبلوماسيين أتراك توسطوا بين المسؤولين الليبيين والأميركيين.

بعدها بستة أشهر، في أغسطس/آب 2011، ذهب أنتوني إلى سوريا لتغطية الانتفاضة. وبسبب عدم قدرته على الدخول بطريقة رسمية (بعد وضعه على القوائم السوداء بسبب تقرير نشره عن سوريا عام 2005 أغضب النظام)، عبَر الحدود الشرقية للبنان إلى سوريا، راكبا دراجة نارية خلف مهرِّب شاب.. عاد سالمًا إلى المنزل بعدها بأسبوع.

رتّب أنتوني لرحلة ثانية إلى سوريا في فبراير/شباط 2012.. تسلل إلى البلاد هذه المرة من حدودها الشمالية مع تركيا.. لجأت الصديقة والزميلة في نيويورك تايمز" هويدا سعد إلى علاقاتها ونظمت الرحلة.. قرر المهربون الذين وافقوا على اصطحابه، دخول البلاد مشيًا وعلى ظهور الخيول عبر الجبال الواقعة على الحدود بين البلدين.

كان أنتوني يعاني من الربو ومن الحساسية تجاه الخيول.. حين اتصل بي من أنطاكيا في جنوب تركيا ليلة مغادرته، كان قلقًا من وجوده قرب الخيول، لكنه أخبرني أن لديه ما يكفي من البخاخات، وكان غاضبًا من تعليق زميل في الصحيفة قال فيه "سيكون هذا تمرينًا جيدًا لك".. قال لي أنتوني "قد أموت في هذه الرحلة وهذا يقول لي: تمرين جيد".

آخر مرة تحدثت فيها مع زوجي كانت يوم 14 فبراير/شباط 2012.. كان في شمالي سوريا واتصل بي عبر هاتف الأقمار الصناعية ليتمنى لي عيد حب سعيدا.. قال إنه سيغادر سوريا خلال يوم أو يومين، وسيسافر مجددا مشيًا وعلى ظهور الخيل عبر الجبال، وأن هذه الرحلة كانت الأفضل في مسيرته المهنية كلها.

حين وصلنا أنا ومالك أخيرًا إلى أنطاكيا ليلة 16 فبراير/شباط، نزلنا في فندق أنيق يسمى الليوان.. ذكّر هذا المكانُ أنتوني الذي يَحنّ دائمًا إلى الماضي بمنزل عائلي أعاد بناءه في جنوب لبنان.. كانت جدته قد عاشت هناك أثناء الوجود العثماني في الشام، وكان دائما ما يتمنى مازحا لو كان وُلد نبيلا تركيًّا في حقبة الشام الكوزموبوليتاني المتسامح.

استيقظتُ بعد منتصف الليل على وقع رنين هاتفي المحمول.. كانت المتصلة هي المحررة التنفيذية للصحيفة جيل أبرامسون وأخبرتني أن "أنتوني أصابته نوبة ربو قاتلة".. كررتُ الجملة في دماغي، لكني لم أفهم ما كانت تحاول قوله لي.. سألتُها "ماذا تعنين بأزمة ربو قاتلة؟".

لا شيء مما مررتُ به في حياتي قد أعدّني لهذه اللحظة.. قالت لي: "أنتوني مات".

تقوقعتُ على أرضية الحمام وأجهشت بالبكاء.. أردت الصراخ، لكن مالك كان نائمًا ولم أشأ أن أفزعه.

كتب الروائي الإسباني خافيير مارياس في روايته "الولع" عن الموت قائلا إن صعوبة تجاوزه تكمن في صعوبة تقبّل نهائيته.

"هو أمر يستعصي على الإدراك حقًّا، لأنه يمثل يقينًا، والتيقن من أي شيء يخالف طبيعتنا.. اليقين بأن شخصًا ما لن يعود مجددًا، لن يتحدّث مجددًا، ولن يخطو خطوة أخرى، باتجاهنا أو مبتعدًا عنّا، لن ينظر إلينا مجددًا، ولن يشيح بنظره عنّا".

أتذكّر أنني هززت أنتوني بقوة حين سمحوا لي أخيرا برؤيته في اليوم التالي، كان عليّ أن أنتظر انتهاء التشريح وعودته إلى حالته. وبقدر عبثية الأمر كما يبدو لي الآن، فقد هززتُه لأوقظه، لأجعله يقف ويمشي خارجًا من تلك المشرحة الباردة، التي لها رائحة كل ما هو قبيح.

سافر العديد من الأصدقاء والزملاء من جميع أنحاء العالم ليقدموا تعازيهم ويحضروا مراسم العزاء تكريمًا لأنتوني، وكنتُ ممتنة للغاية لحضورهم.

بقدر استطاعتي، أكبتُ ذكرياتي عن تلك الليلة التي مات فيها، واليومين التاليين اللذين قضيتهما في المستشفيات والمشرحة والمحكمة وتحقيقات الشرطة. في الطائرة التي أخذتنا من أضنة إلى إسطنبول، صرختُ كامرأة مجنونة.. كان مالك جالسًا على حجري مفزوعًا، وكان أنتوني في قسم الأمتعة مستلقيًا في التابوت الوحيد الذي استطعنا إيجاده في أضنة.. كان مملوكا لرجل ألماني، فالمسلمون لا يدفنون موتاهم في توابيت.

يقول جون ديديون في كتابه "عام التفكير السحري" إن الناس الذين فقدوا أحبة لهم يبدون عراة، لأنهم يظنون أنهم أخفياء لا يراهم أحد".. الخفاء شعور مريح حين يكون قلبك ثقيلا. بعد موته، فضّلتُ الأماكن التي لا يعرفني فيها أحد ولا أعرف فيها أحدًا.. الأماكن التي أحسستُ فيها أني خفية ومجهولة تماما.

مرت ست سنوات منذ وفاة أنتوني، ومع ذلك أشعرُ في بعض الأيام بنفس الشعور المجرد الذي أحسستُ به في تلك الليلة في تركيا.. تركت الصحافة ومنزلي في بيروت وانتقلتُ بعيدًا عن أي شيء وأي شخص أعرفه بآلاف الأميال.. وفي الطريق أصبحتُ شخصًا لا أعرفه.

فقدتُ اتزاني والانضباط الذي تميزتُ به.. كل ما يتطلب مجهودًا ذهنيًّا صغيرًا أصبح عسيرًا وشاقا، حتى كتابة هذه الأسطر.

أنا ممتنة لكوني أمًّا.. فبطريقة ما، أعتقد أن الأمومة أنقذتني من اتخاذ القرارات الخاطئة، وأجبرتني على القيام من السرير حين لم تكن لديّ أيُّ طاقة أو رغبة أو إرادة لفعل ذلك.. تنشئة طفل سعيد ومعافى ستكون دائمًا أكبر إنجازاتي، وأكثرَها معنى.

بلغتُ السابعة والثلاثين من العمر في يناير/كانون الثاني الماضي، لكن آخر عيد ميلاد لي أتذكّره كان العيد الواحد والثلاثين.. لا أستطيع احتساب السنوات الست الماضية من حياتي.. أجبرتُ نفسي على المنفى والعزلة التي أصبحتْ قوية لدرجة أنني لم أعد أستطيع التحرر منها.